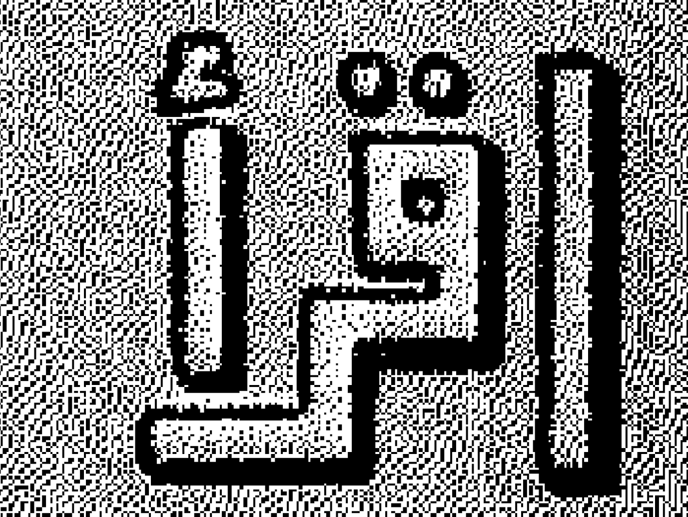
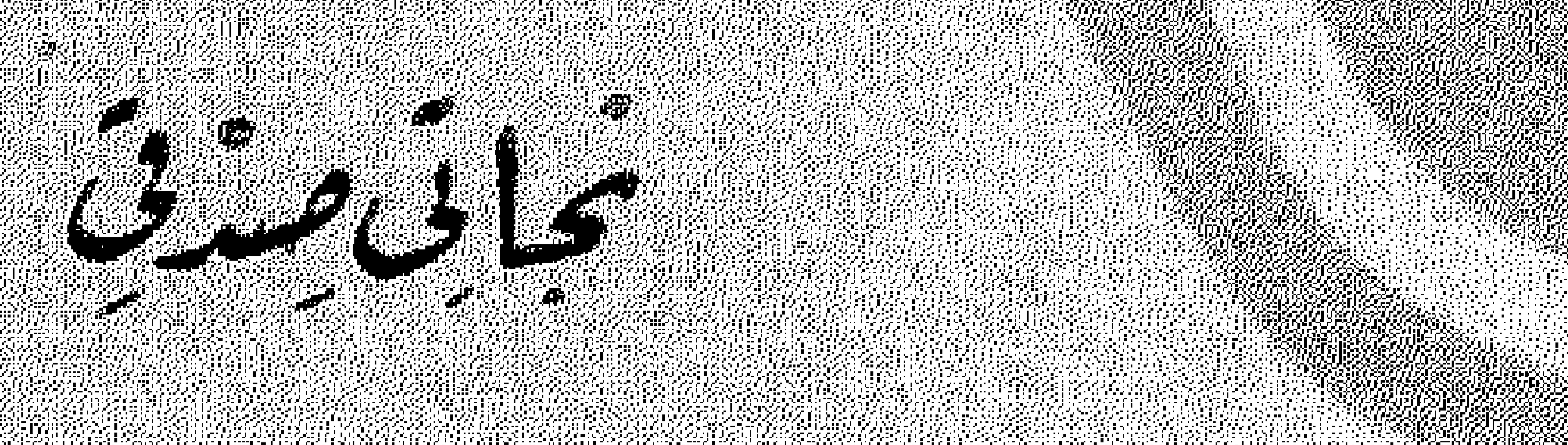




تشيخوف

دار المعارف للطباعة والنشر

تشيخوف

نجاتي صدقي

تشيخوف

اقرأ ٥٠

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٥٠ — يناير سنة ١٩٤٧





أنطون باڤلوڤيتش تشيخوف

١٨٦٠ — ١٩٠٤

تمهيـــد

ما إن صدر « بوشكين » فى سلسلة « اقرأ » ، وانتشر بين القراء حتى تفضل عدد كبير من أدباء البلاد العربية وكتابها وشعرائها ، وحثنى إما بالمراسلات الخاصة ، أو على صفحات المجلات ، أن أضع فى العربية مؤلفاً جديداً يستمد مادته من الآداب الروسية الكلاسيكية ، فوقع اختيارى على الدكتور أنطون تشيخوف ، مع أنه أكثر الكتاب الروس انتشاراً فى الأدب العربى الحديث .

وكثيراً ما يلجأ كتاب القصة فى البلاد العربية اليوم إلى تشيخوف فى محاولتهم وضع قصص محلية نابضة بالحياة ، ملأى بالصور الفنية ، غنية بالألوان الزاهية ، طافحة بالوقائع والمحسوسات خالية من الثرثرة ولغو الكلام ، وهذا ما حدا بى أن أترجم لخالق القصــة الروسية القصيرة ، وأبين مكانته بين أدباء الروس العظام .

ويجدر بى أن أذكر فى هذا المضمار أننى لست أول من

يعرب صفحات من الأدب الروسي من مصادره الأصلية مباشرة؟ فهناك فريق من الأدباء الذين تخرجوا من المعهد الروسي التبشيري في الناصرة (فلسطين) فى أوائل هذا القرن، قد ترجموا لتشيخوف، وتولستوى، وتورغينيف وغيرهم، إبان الحكم العثمانى، إلا أن ترجماتهم هذه كانت يسيرة جداً، وفيها من حرية التصرف ما فيها. زد على ذلك ما تركته الخطة التبشيرية التى تمشى عليها معهد الناصرة من أثر فى بعض أولئك الأدباء، مما أدى إلى حصرهم فى نطاق محدود من التفكير الأدبى الكنسى، وإبعادهم عن تعريب النواحى القوية فى أدب صقالبة الشمال. والدليل على ذلك أنه ما إن تدهورت روسيا القيصرية سنة ١٩١٧ وزال شبحها عن الشرق العربى حتى نفض أولئك الأدباء أيديهم من الآدب الروسية. وبعد مضى ربع قرن من الزمن نسوا اللغة الروسية على وجه التقريب.

* * *

لقد انتقيت لكتابى هذا مجموعة من مسرحيات تشيخوف من ذوات الفصل الواحد، كما انتقيت له طائفة من قصصه الروسية الصميمة، ونقلتها إلى اللغة العربية، محافظاً على روح

المؤلف ومزاجه وتعابيره ، بحيث لا يتعذر على القارئ العربى أن يلمس أنه يطالع أدباً غير أدبه ، ويشاهد مجتمعاً غير مجتمعه .

وقدمت فى مطلع الكتاب دراسة عامة لحياة تشيخوف وتآليفه ، ليستعين بها القارئ على تتبع مراحل تفكير ذلك العبقرى الروسى ، وإدراك كنه مسرحياته وقصصه .

فعسى أن أكون قد أحسنت اختيار المؤلف ، وأصبت فى انتقاء بعض مآثره الخالدة

نجاتى صدقى

أنطون باڤلوڤتش تشيخوف

حياته . تآليفه . اتجاهاته الأدبية

تاغنروغ . . .!

ومن منا لم يسمع بهذه المدينة إبان الحرب الألمانية السوفياتية؟. أجل ! إن تاغنروغ هذه التى تقع فى أقصى شمال بحر آزوف ، هى مسقط رأس القصصى والكاتب المسرحى العالمى أنطون باڤلوڤتش تشيخوف .

ولد فى السابع عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٠ ، وكان جده لأبيه رقيقاً للسادة تشرتكوف . أما أبوه فكان وكيلا لأملاك خاصة ، ثم تاجراً . وكانت أمه أوجينى ياكوڤليڤا تنتمى إلى أسرة عريقة فى التجارة معروفة بأسرة موروزوف .

تلقى أنطون علومه الأولية فى المدرسة اليونانية الابتدائية فى تاغنروغ التابعة لكنيسة القيصر قسطنطين ، ثم تدرج منها إلى المدرسة الثانوية القائمة فى المدينة . وقد جاء فى مذكرات أخيه ميخائيل تشيخوف أن زملاء أنطون فى المدرسة كانوا يلقبونه بـ « أنتوشا تشيخونته » لأنه كان هادئ الطبع ، سكوتاً ،

شاحب اللون ، قمرى الوجه، منطوياً على نفسه ، قليل الاختلاط بالناس . . وكان أنتوشا التلميذ ، يحس فى قرارة نفسه أنه شىء تافه فى هذا الوجود ، فكتب لأخيه ميخائيل مرة رسالة ختمها بقوله : « واسلم لأخيك الضئيل ! . . » فرد عليه أخوه معنفاً إياه بقوله : « لا يعجبنى قولك : "أخوك الضئيل". أتدرى أمام من يجب أن تقر بضآلتك ؟ يجب أن تقر بها أمام الله . . . أمام العقل ، والجمال ، والطبيعة ، وليس أمام الناس . . . فعليك ألا تقر أمامهم إلا بكرامتك . . فأنت شاب شريف ، والشريف يحترم نفسه . وعليك ألا تمزج بين الطاعة والاعتراف بالضآلة » .

ويبدو أن هذه الكلمات قد تركت أثرها فى نفس أنتوشا ، ونبهته إلى ضرورة الخروج من العزلة ، والشعور بالكرامة الذاتية فكتب بعد مدة رسالة لأخيه قال فيها : « أتدرى يا أخى أن إدارة المدرسة تتقاضى عن كل طالب من الطلاب الداخليين مبلغ ثلاثمائة وخمسين روبلاً سنويًا ، لكنها تقدم لهؤلاء المساكين غذاء لا تستسيغه معد الكلاب » .

وأخذ أنتوشا يصدر فى المدرسة مجلة للتلاميذ ، سماها :

«الأرنب» ، وكان هو محررها الأول ، يغذيها بنكته ومداعباته؛ وساهم فى إنشاء مسرح فى المدرسة أيضاً، وكان يضع له المسرحيات المدرسية ويمثل فيها .

ولما أتم المدرسة الثانوية بتاغنروغ ، وقد بلغ من العمر تسع عشرة سنة ، أحس بميل يدفعه إلى دراسة الطب ، لأن الطب فى نظره هو أسمى الأعمال الإنسانية ، فالتحق سنة ١٨٧٩ بكلية الطب التابعة لجامعة موسكو .

وبعد مضى أربع سنوات غدا أنتوشا يلقب بالدكتور أنطون تشيخوف .. وهذه الناحية الطبية فى حياته يجهلها معظم قرائه؛ فالذى يعرفونه عنه أنه كاتب قصص ومسرحيات ليس إلا . .

حقاً إن الدكتور تشيخوف لم يمارس الطب كمهنة دائمة فى حياته ، ويعزو أخوه السبب فى ذلك إلى حادثين وقعا له فى بدء ممارسته فن التطبيب أولها أنه وصف يوماً لأحد المرضى علاجاً أخطأ فى تحضير عقاقيره . . ولم يفطن للخطأ إلا فى الليل ، فهب من فراشه مسرعاً إلى بيت المريض الذى كان على وشك تناول الجرعة الأولى قبل النوم . . وربما كانت النومة الأخيرة . . .

وثانيهما أنه كان يعالج أسرة مريضة بداء السل ، ويعودها بين

حين وآخر ، وحدث أن اشتد المرض على أحد أفرادها وأسلم الروح ويده بين راحتى الدكتور تشيخوف . . .

ومع ذلك اشتغل الدكتور أنطون تشيخوف فى دائرة الصحة فى موسكو ، وكان طبيباً لقرية لوپاسنا الواقعة بالقرب من العاصمة الروسية ، واشترك سنة ١٨٩٢ فى مكافحة عدوى الكوليرا وكان على الجملة محباً للطب ، مقراً بأن العلوم الطبية واختباراتها كان لها الأثر العميق فى نفسه ككاتب قصص ومسرحى .

والطريف فى حياة تشيخوف أن نزوعه إلى الأدب وميله إلى الطب لم يتعارضا قط ، بل كانا يكمل بعضهما بعضاً ، وعلى سبيل المثال نقول إن أولى قصصه كتبها وهو يتلقى العلوم الطبية فى الجامعة وعنوانها : « رسالة إلى جار عالم » ويجدها القارئ مترجمة فى هذا الكتاب وهى قصة تهكمية نقدية ، يسخر فيها الكاتب من « غنىّ أمىّ » يطيب له أن يتحرش بالعلماء و « يناظرهم » . . . وقد نشرت هذه القصة فى مجلة « الذبابة الفارسية » سنة ١٨٨٠ ، ثم صار فى تلك الأثناء يكتب فى عدة مجلات نذكر منها « موسكو » و « المنبه » و « الشظايا » و « النور والظلام » و « الصرصور » و « صحيفة بطرسبورغ » .

وكانت كتاباته فى هذه المجلات أقاصيص هى أصغر من منقار الغراب ! . . وقد بلغت إحداها أحد عشر سطراً . . وبالرغم من ذلك كان يقول له السيد ليتينسكى صاحب مجلة « المنبه » :

أقاصيصك طويلة يا بنى . . اختصر . .

وكان تشيخوف ينحو فى قصصه هذه نحو الهزل والنكتة ، وتحمل كتاباته أسماء مستعارة مختلفة منها «أنتوشا تشيخونته» . وإذ كان يشعر دائماً بأنه بحاجة ماسة إلى شخصيات ومواضيع هزلية ، أعلن فى البيت ، وذلك بعد أن لحقت به أسرته من تاغنروغ ، أنه مستعد لشراء أية حكاية مضحكة بمبلغ عشرة كوبيكات ، أما إذا كان الموضوع يصلح لقصة كاملة فيشتريه بعشرين كوبيكا . ويظهر أن أسعاره هذه أغرت أحد إخوته* فكان يمده دائماً بالطرائف والملح ، ومن ثم أصبح « متعهده » الخاص .

ووضع تشيخوف فى تلك السن — أى وهو فى الرابعة والعشرين من عمره — ثلاث روايات هى « زهور متأخرة »

---

* كان للكاتب أربعة إخوة وأخت

و « الجديلة الذهبية » و « فوز لا لزوم له » لكنها لم ترق له فيما بعد، ولم ينشرها فى مجموعاته، واندثرت تماماً .

وفى سنة ١٨٨٥ وضع رسالة فى التوجيه الأخلاقى لها قيمتها لصدورها عن شاب فى الخامسة والعشرين ، وكانت هذه الرسالة دستور تشيخوف طيلة حياته ، وإلى القارئ ترجمتها الحرفية :

« إن المهذبين من الناس ليتحلون بالصفات التالية :

أولاً — إنهم يحترمون الشخصية الإنسانية ، ولذا تراهم دائماً متواضعين ، مرنين ، متساهلين ، فإذا ما خالطوا أحداً من الناس فلا يقولون له « يتعذر العيش معكم » . . إنهم يغتفرون للصخب والبرد ، والحرارة ، والتطرف ، ولوجود الغرباء فى بيوتهم .

ثانياً — إنهم لا يتألمون للفقراء والحيوانات الضعيفة فحسب، بل إن نفوسهم لتتألم أيضاً لأشياء لا تراها العين... وهم لا ينامون الليل لأنهم فى تفكير دائم فيمن يعجز عن دفع الأقساط المدرسية عن إخوته ، أو لا قدرة له على كسو أمه .

ثالثاً — إنهم لا يعبثون بملك غيرهم ، وهم دائماً يسددون ما عليهم من ديون .

رابعاً — إنهم أتقياء القلوب ، ويخشون الكذب كما يخشى

المرء النار . فالكذب فى نظرهم مهين للسامع ومحط من قيمة المتكلم . . إنهم لا يتذبذبون فى حياتهم ، فسلوكهم فى الشارع لا يختلف قط عن سلوكهم فى البيت . . وهم لا يحقرون إخوتهم الصغار ، كما أنهم غير ثرثارين ، فلا يتفوهون بما لا يسألون عنه وإذا ما تكلم غيرهم التزموا الصمت .

خامساً — إنهم لايتمسكنون لاستثارة الشفقة عليهم ، وهم لا يضربون على أوتار قلوب غيرهم ليفوزوا بتأوهات من أجلهم. وهم لا يقولون : « لا يفهموننى » لأن هذه العبارة لا تدل إلا على ضآلة ووقاحة وتزييف .

سادساً — إنهم لا يحملون الهموم فى نفوسهم ، ولا تبهرهم الأحجار الكريمة الكاذبة ، كالسعى للتعرف إلى الأشخاص البارزين ، أو العمل على مصافحة أيدى السكيرين ! . . وهم يهزأون بمن يتباهى بقوله : « إننى ممثل الصحافة » ، ويكدون من أجل قوتهم فقط ، فلا يقتنون ياقة بمائة روبل ، ولا يهتزون إعجابا إذا ما سمح لهم بارتياد أماكن محظورة على غيرهم ، فالنباهة الحقيقية فى نظرهم هى العمل فى الظلمة ، بعيداً عن الضجة والإعلان . . أو لم يقل كريلوف : « إن البرميل

الفارغ يحدث ضجيجاً أكثر من البرميل الملآن . . . ؟ »

سابعاً — إنهم يقدرون ذكاءهم ، فيضحون من أجله بالراحة والخمر والنساء . وهم جد فخورين بعقولهم ، ويدركون أنهم مدعوون للتأثير على غيرهم بتعاليمهم . يضاف إلى ذلك أنهم صعاب المراس .

ثامناً — إنهم لا يتصنعون تهذيب نفوسهم ، لأن نفوسهم مهذبة بطبيعتها ، وهم لا يهجعون بلباسهم ، ولا يهملون شقوقاً فى الحائط مليئة بالحشرات ، ولا يستنشقون الهواء المسمم ، ولا يسيرون على أرض نثر عليها البصاق . . . ولا يتغذون فى أوعية قذرة ، وهم يسعون بقدر المستطاع إلى تقييد غريزتهم الجنسية والتسامى بها ، فهم لا يريدون من النساء فراشاً ؛ إنهم أشبه بالفنانين يريدون من النساء نضارة وجمالاً وإنسانية وكفاءة ليصبحن أمهات ... وهم لا يقبلون على احتساء الفودكا ، ولا يتشممون الخزائن مثل الخنازير ، ومبدؤهم : « العقل السليم فى الجسم السليم » .

هؤلاء هم المهذبون . . !

فلكى تكون مهذباً ولا تهوى إلى أقل من المستوى الذى

أنت فيه لا يكفيك أن تطالع كتاب « بكفيك » أو أن تردد حواراً من « فاوست » ، بل عليك أن تعمل على صقل نفسك باستمرار ، وأن تطالع دائماً ، وأن تدرس ، وتشد عزيمتك . فكل ساعة تمر من حياتك لا تقدر بثمن » .

وفي هذه الآونة ، أكب تشيخوف على وضع رواياته الصغيرة « بلا أبوة » و « ليس عبثاً صاحت الدجاجة » و « الرواية الكبيرة » . ثم أنجز مأساته المسرحية : «على الطريق العام » وقد حظرت الرقابة الروسية وقتئذ طبعها لتحدثها عن طائفة من الحجاج والقساوسة وأبناء السبيل.. .

وفي سنة ١٨٨٦ نشر أنتوشا تشيخونته أول مجموعة من قصصه تحت عنوان « قصص براقة » تتناول النكتة والمداعبة والنقد التهكمي اللاذع ، فجلبت له الشهرة فجأة . وفي سنة ١٨٨٧ أعقب تلك المجموعة بمجموعة أخرى ونشرها بعنوان « الشفق » وموقعة باسمه الصريح الجدي « أنطون تشيخوف » . . فتلألأ نجمه على إثرها في عالم الأدب الروسي ، ونال الجائزة الأدبية للأكاديمية الروسية المعروفة بجائزة بوشكين .

هذه هي المرحلة الأولى من حياة الكاتب الروسي الكبير ،

وقد عرف فيها أنه كاتب «يَعِدُ كثيراً» ويبشر بخير أدبيّ وافر، فهو يضع فيضاً من القصص الصغيرة لتنشر فى جميع المجلات. ولما سئل فيما بعد: « كم وضعت من القصص فى تلك الفترة؟ » أجاب: « أظن أنها بلغت الألف » ! . . ثم شرع ينتقل من وضع الأقاصيص التى تنطوى على النكتة والملاحة، وحدة الذهن، إلى القصص الكبيرة ومحاولات فى الرواية. وكان القوم وقتئذ ينظرون إليه بوصفه شاباً فطناً، إلا أن أحداً منهم لم يدر بخلده أن هذا الشاب الفطن سيدخل فى عداد الكتاب الكلاسيكيين الروس.

بعث تشيخوف يوماً برسالة للكاتب الروسى الشيخ « غريغوريفتش » قال له فيها: « كنت أكتب القصص كما يكتب مخبرو الصحف أنباء الحرائق، كنت أكتبها وأنا فى غمرة من الذهول، وكأنى فى حالة لاشعورية، غير مهتم بالقارئ أو بنفسى، وغير ساع لأن أضع فى القصة أشكالا وأشخاصاً كانت عزيزة على؛ والله وحده يعلم ما الذى كان يحدو بى لأن أحتفظ بها وأدخرها ».

وفى سنة ١٨٨٧ وضع تشيخوف مسرحيتين هزليتين من

ذوات الفصل الواحد ، وهما « الدب » و « وطلب زواج .» — ويجد القارئ المسرحية الأولى مترجمة فى هذا الكتاب — وقد لاقتا لدى الجمهور الروسى نجاحاً كبيراً ؛ ثم أعقبهما سنة ١٨٨٨ بأولى مسرحياته الكبيرة « إيڤانوف » فحالفها التوفيق وجابت له الثناء والمال معاً .

وفى سنة ١٨٨٩ ، وضع روايته الكبيرة « القفر » ومسرحية هزلية مؤلفة من فصل واحد « مفجوع رغم أنفه » — يجدها القارئ مترجمة فى هذا الكتاب أيضاً — ثم أعقبهما بمسرحيته الكبيرة « جنى الغابة » ، طلبها منه مسرح « كيرش » فى بطرسبورغ ، ورجاه أن يسرع فى وضعها ، فكان تشيخوف يضع كل يوم فصلا فيحمله الرسول إلى مدينة بطرس ويعرضه على الرقيب قبل أن يجف حبره ، ثم يحيله إلى الممثلين ليستعدوا عليه .

والمعروف عن تشيخوف أنه كان يمقت « جنى الغابة » . وقد أصرّ على عدم إعادة طبعها وتمثيلها ، ثم عدّلها بعد سنوات وأدمجها فى مسرحية « العم ڤانيا » .

وفى هذه المرحلة الثانية من حياته الأدبية يعترف به القوم

بأنه « من أنبه الكتّاب » ؛ فتقل كتابته ، ويبدو عليه التحفظ ، ويتحدث الناس عن كل شيء يكتبه ، وتفتح له المجلات الكبرى صدورها ، لكنه يتهم « باللامبدئية » . .

وحدث فى تلك الأيام أن أثار جماعة من الأدباء الكلامَ عن تشيخوف فى حضرة الشيخ غريغوريفتش ، فقارنوه بكاتب أقل نبوغاً منه ، لكنه يفوقه فى « المبدأ » فتنمر الكاتب الشيخ وقال : « إن هذا الكاتب المبدئى، لا يستحق أن يقبّل أثر البرغوث الذى يلسع تشيخوف ! »

ويندمج الكاتب فى هذه المرحلة بجميع الأوساط الأدبية والفنية فى العاصمتين الروسيتين ، ويظهر فى المجتمعات متواضعاً ، محباً للإصغاء والتأمل ، مقلاً من الكلام ، وتأخذ شهرته فى الانتشار والذيوع ، ويحس الكاتب فى هذه المرحلة أيضاً بميل إلى الرحلات فيتجه صوب القوم والقوقاس والفولغا ، ثم يعقد النية على السفر إلى آسيا الوسطى وإيران، غير أنه يتلقى نبأ وفاة أخيه ميخائيل وهو فى باكو ، فيقفل راجعاً إلى موسكو .

ثم لم يلبث أن عمد إلى إعداد مشروع للسفر إلى جزيرة «سخالين» جزيرة المنفيين والمبعدين . ومما قاله فى تلك الجزيرة :

« ربما لا يهم أمر سخالين تلك الفئة من الناس التى ليس لها فيها الآلاف من الإخوان والبنين ، ولا تنفق عليهم الروبلات بالملايين . فسخالين هذه موطن آلام لا تطاق . . ولا يقوى على احتمالها الأحرار أو المستعبدون . حقاً إنه ليؤسفنى أننى غير عاطفى. وإلا لنصحت الناس بأن يحجوا إلى سخالين جيلاً بعد جيل كما يحج المسلمون إلى مكة ، وأما البحارة والسجانون فعليهم أن يتطلعوا إلى سخالين كما يتطلع المحاربون إلى سواستوبول».

وقام برحلته هذه سنة ١٨٩٠ ، وظل فى الجزيرة مدة ثلاثة أشهر لم يترك فيها مكاناً إلا زاره ، وبعد عودته وضع سفراً قيماً يقع فى أربعمائة صفحة ، وصف فيه الجزيرة وسكانها وصناعتها وزراعتها ودوائرها ومنافيها ، حتى إن وزارة المعارف الروسية حينذاك أذنت بتدريس «فصوله الجغرافية» فى مدارسها.

وما إن استقر تشيخوف فى موسكو ثانية ، حتى بدأ يمل ويتضجر ، ويقول لأصدقائه : « إيه أصدقائى . . ما هذا الملل المستولى على . . إن كنت طبيباً فإننى بحاجة إلى مرضى ومستشفى ، وإن كنت أديباً فعلى أن أعيش فى وسط الناس، لا فى زقاق مالايا. ديمتروفكا . . إننى بحاجة ماسة إلى « قطعة » من

الحياة السياسية والاجتماعية . . وأما هذه الحياة بين جدران أربعة ، حيث لا صحة ولا شهوة ، ولا أناس ولا وطن ! فهى ليست حياة وإنما هى الموت بعينه ! » .

وسرعان ما أقبلت عليه « القطعة » المطلوبة من الحياة الاجتماعية والسياسية ، ملبية نداءه ، إذ حدث أن المجاعة ضربت أطنابها فى روسيا سنة ١٨٩١ ، فهب الكاتب يجمع للجياع اللباس والقوت . وفى سنة ١٨٩٢ رحل إلى مواطن المجاعة فى نيجيغورودسكى وأخذ يشرف بنفسه على عملية إغاثة الفلاحين المنكوبين .

وفى السنة ذاتها عمد تشيخوف إلى إنشاء حياة جديدة له تكون حافلة بالنشاط والإنتاج ، فابتاع قطعة أرض مهجورة فى قرية ميليخوفة ، بالقرب من موسكو ، وأخذ يفلحها ، ويعبد طرقها ، ويحفر فيها الآبار ، ويقيم عليها المستشفيات ويغرس فيها الأشجار ، ويعتنى بها كما يعتنى المرء بأطفاله .

وفى ميليخوفة هذه وضع تشيخوف مسرحيته « النورس » — وهو طائر مائى فى حجم الحمام أو أكبر يعلو فى الجو ثم يزج نفسه فى الماء ، ولا يأكل غير السمك — ومثلت على مسرح

ألكسندر يفسكى فى بطرسبورغ سنة ١٨٩٦ ، لكنها باءت بالفشل الذريع لأن الممثلين فى ذلك المسرح الحكومى اعتادوا التمثيل الفنى بلا حياة ، فلم يفقهوا تشيخوف فى روايته.. فكانت العبارات الشعرية فى روايته تثير ضحك الجمهور . . وكانت أقوالها الانتقادية تؤخذ على علاتها فيعلق عليها النظارة بالتنكيت والسخرية . . ولما انتهى التمثيل أقبل المداهنون يهنئون الكاتب وهو واقف خلف الستار فلم يقو على احتمال هذه الهزيمة ، وفر من المسرح ، وراح يسير على ضفة نهر نيفا على غير هدى ، وكان الطقس رطباً بارداً ، فأثر ذلك فى رئتيه المريضتين ، وأسرع فى تقصير أجله .

إن حكم نظارة المسرح أسرع من القراء وأشد قسوة ، فالرواية يطالعها الناس وتنقضى مدة من الزمن حتى يفطن أحدهم لانتقادها ، وأما المسرح فترتفع فيه أصوات آلاف النظارة فوراً وتصدر فى المسرحية حكماً سريعاً لا رحمة فيه ، ثم تهب الصحف بعد ذلك وتدين تلك المسرحية مستندة إلى الحكم الذى أصدره جمهور النظارة فى المسرح .

وقد تلقى تشيخوف على أثر فشل « النورس » رسالة من

لينسكى ، وهو أحد كبار ممثلى المسرح الإمبراطوزى الصغير ، قال له فيها : «أنت تعرف مقدار حبي لك ، وتقديرى لذكائك ، ولذا أرى لزاماً على أن أكون صريحاً معك . . فهاك نصيحتى الخالصة : لا تكتب للمسرح ، فالمسرحيات ليست من اختصاصك » . . .

إلا أن فشل « النورس » و « نصيحة » ، لينسكى وغيره لم تحدّ من نشاط تشيخوف المسرحى ، فتابع وضع المسرحيات ، وأخرج إلى الوجود « العم فانيا » سنة ١٨٩٦ ، و « الأخوات الثلاث » سنة ١٩٠٠ ، و « حديقة الكرز » سنة ١٩٠٣ ، وقد تبنى مسرح موسكو الفنى جميع هذه المسرحيات بما فيها « النورس » ومثلها أفضل تمثيل بما يطابق روح تشيخوف وطراز تفكيره المستمد من وخزات الحياة ودقائقها .

ولما احتفل بانقضاء عشر سنوات على تأسيس مسرح موسكو الفنى وقف الممثل ستانيسلافسكى وقال عن « النورس » : «لقد جاءنا هذا النورس طائراً من بيت تشيخوف ، وجلب لنا معه السعادة وأنار لنا طريقاً جديدة فى حياتنا الفنية » .

وقال الكاتب المسرحى الروسى الأشهر نميروف دانشنكو

فى خطابه الموجه إلى تشيخوف إبان عرض « حديقة الكرز » سنة ١٩٠٤ : « إن مسرح موسكو الفنى مدين لذكائك ولقلبك الرقيق ، ولنفسك الطاهرة ، فيحق لك أن تقول : إن هذا المسرح مسرحى » .

وقال تشيخوف فى إحدى رسائله عن المسرح المذكور : « إن المسرح الفنى هو أروع صحيفة فى ذلك الكتاب الذى سيوضع يوماً ما عن المسرح الروسى المعاصر » .

وهكذا توطدت الصلات بين المسرح الفنى وتشيخوف حتى غدا الاثنان متلازمين ملازمة الروح للجسد . ولما عرض المسرح المذكور « العم فانيا » للمرة الأولى فى موسكو كان الكاتب فى القرم يعالج مرض ذات الرئة فقرر الممثلون السفر إليه ليقوموا بتمثيل روايته أمامه . . . وتوجهوا فعلاً إلى يالتا ، حيث كان يصطاف مكسيم غوركى ، وعدد كبير من الكتاب وأسرهم ، ومثلوا « العم فانيا » بحضور أنطون تشيخوف وأقاموا فى حديقة بلدية يالتا حفلة تعارف كبرى بين الكتاب والفنانين .

فمسرحيات تشيخوف لم تنل فى بادئ الأمر النجاح من الجمهور لضعف فيها ، أو لعدم استعداد الجمهور لفهمها ، بل لأن

الممثلين والمخرجين كانوا يتقيدون بقواعد بعيدة عن واقع الحياة ، فتعذر عليهم إخراج مسرحيات تشيخوف كما يريدها هو ، ولم يتخط هذه العقبة إلا مسرح موسكو الفنى الذى أتينا على ذكره.

قال أحدهم : لكى تكتب المسرحية يجب أن تكون ذكياً ، ولكى تخرجها يجب أن تكون نابغة ! . . .

وشخصيات تشيخوف فى مسرحياته خلو من كل صباغ ، هم أناس بسطاء ، يتحدثون عن أبسط الأمور بلغة بسيطة . . فليس فيهم نداب بكاء ، ولا مَنْ يتعلق بأهداب المثل العليا الخيالية ، وليس بينهم أبطال يتباهون بجلائل الأعمال ، بل على النقيض من هذا كله فالمؤلف يعزى شخصياته ، ويكشف عن نواحيها السيئة ، ويشير إلى نزعاتها الأنانية ، فيحس قارئ مسرحياته والناظر إليها أن قلبه يميل إلى الحنان والتعطف على أناس غير واضحين ، وأن أحلاماً غير واضحة تدغدغه وتنبهه إلى حياة أفضل ، وإن كانت غير واضحة ! . . .

. . وترافق هذه البساطة فى التعبير ، موسيقى خلابة ، وكوخ مهجور ، وليلة قمراء ، وهدوء « سارة » المكبوت ، وأحزان «إيڤانوف ، وكمان العزاف الرقيق ... وكل ذلك طبيعى لا تصنع

فيه ولا تكلف ، لأن تشيخوف لم يتبع أى تمييز فى الألوان والألحان التى خلعها على شخصياته ، وقد حصر همه فى إخراج المسرحية بطبيعتها ، غير باحث عن أشكال جديدة ، وغير ساع لأن يكون مجدداً فى المسرح الروسى ؛ وكل ما كان يسعى إليه هو إيجاد أدوار جديدة للممثلين مصوراً شخصياته كما يراها فى الحياة متصلة بما يحيط بها من حقائق ووقائع . . فتتضمن مسرحياته الحديث عن الفجر الوردى ، والأمسيات الساحرة ، والمصابيح ، والمواقد ، وغلايات الشاى ، والبيانوات ، والآلات الموسيقية ، والتبغ ، والأخوات ، والخالات ، والعمات ، والجيران والأغانى . . وغير ذلك من مئات وآلاف الأشياء الصغيرة التى تبعث الدفء فى الحياة .

فتشيخوف نظر إلى الناس بعينيه لا بأعين تولستوى ، ودستويفسكى ، وتورغينيف . . فلا أبطال لديه وإنما أمزجة مختلفة من الناس .

قيل له يوما : أقرأت « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ؟ فأجاب : أرجأت قراءتها حتى أبلغ الأربعين ! . . ولما بلغها سئل :

أقرأتها ؟ . . فأجاب : أجل قرأتها ولكنها لم تترك فى نفسى أثراً كبيراً ! . .

فتشيخوف صاحب اتجاه خاص فى تآليفه ، فهو كما ألمعنا يصور أمزجة الناس ، وحالاتهم النفسية على مختلف أشكالها ، كما يصف طباعهم وسلوكهم وعاداتهم ، ويتناول وخزات الحياة الدقيقة ، التى لا ينتبه لها المرء لكنها هى التى تولد بالتدريج حالات شتى من التعقدات النفسية والفكرية . . فالوخزة ـ أى أتفه متاعب الحياة — هى محور شخصيات تشيخوف ، وهى المقياس الذى يقيس به قيم الحياة الإنسانية .

وفى هذه المرحلة الثالثة من حياة الكاتب يُعترَف بأنه من كبار الكتاب المسرحيين ، ويبدو فى هذا الدور بأنه يعمل على تهذيب فنه العظيم ، ويفسح المجال لشخصياته لتفكر وتمحص ، ويتناول بصورة خاصة أشكالا من حياة المتعلمين الروس ، التائهين فى عالم المتناقضات ، الغارقين فى الأحلام ، وانعدام الإرادة . . وفى غمرة هذه التأملات يعثر المرء على أفكار للمؤلف حكيمة ، فاضلة ، أعرب عنها برشاقة وفن عظيمين ، كما أن أغنية « عدم المبدئية » اندثرت تماماً ، وغدا

اسمه يأتى بعد اسم تولستوى مباشرة .

***

إن كل من يطالع قصص تشيخوف ومسرحياته لا يسعه إلا أن يقر بعبقرية هـذا الكاتب الفنان العالمى ، وإذا استقصينا السر فى هذه العبقرية لا نجده فى كفاءاته الشخصية فحسب ، بل فى فهمه العميق لروح القصة والمسرح أيضاً .

حدثنا الكاتب الروسى تيليشوف — وهو أحد معاصرى تشيخوف وأصدقائه — قال : تعرفت إلى تشيخوف فى سهرة شتوية ؛ ولما قربت تلك السهرة من نهايتها قال لى : لقد لاح الصباح ، والمدعوون يتفرقون إلى منازلهم ، وحان لنا أن نخرج أيضاً ، فهل رافقتنا لنشرب الشاى مع الزميل غيلياى وأخى ميخائيل بافلوفتش ؟ . . فقبلت الدعوة وخرجنا أربعتنا فى طلب الشاى ، وبعد بحث متواصل فى الحارات والأزقة وجدنا مقهى أضىء مصباحه ، فدخلناه وكان قذراً حقيراً . . فقال تشيخوف معلقاً :هذا ما نستحقه الآن، وإذا وضعنا كتباً جيدة استحققنا أن نتناول الشاى فى مقاهٍ فاخرة ! . .

ولما كنا فى ملابس السهرة الرسمية اعتبرنا أصحاب المقهى من

خدم الموائد الارستقراطية الذين أنهوا عملهم فى حفلة عرس كبرى . . ! فاغتبط تشيخوف لذلك وقال : هذا شىء نفيس . إنكم لتشكون من قلة المواضيع للكتابة . . أو ليس هذا بموضوع؟ هنا مادة لقصة طويلة ! . .

وكان حائط المقهى قذراً ، وقد ظهرت عليه بقع سوداء ، تركتها رؤوس الحوذيين المخضبة بالزيوت ، فتطلع الكاتب إلى هذه البقع وقال : كيف لا توجد مواضيع للكتابة ، المواضيع موجودة فى كل مكان . . . انظروا إلى هذا الحائط : ها هو ذا يبدو لكم لأول وهلة أن لا شىء فيه يسترعى الاهتمام ، ولكنكم إذا أنعمتم النظر فيه رأيتم شيئاً « خاصاً به » ، لم يعثر عليه أحد بعد ! فتحدثوا عن هذا الشىء . . وأؤكد لكم أنكم تضمنون حينئذ قصة جيدة ... وأضرب لكم مثلا بالقمر : لم يبق كاتب أو شاعر إلا تحدث عن القمر ، ومع ذلك بوسع المرء أن يجد فى القمر شيئاً « خاصاً به » ويكتب عنه .

والتفت الكاتب فجأة إلى النافذة المطلة على الشارع ، وكان ضياء الفجر آخذاً فى الانتشار وقال : انظروا ألا ترون قساً يحمل كتابه بيمينه وهو فى طريقه إلى برج الكنيسة ألا تشعرون أن

الموضوع الطريف يثير نفسه بنفسه . . هناك شيء مفجع ، قس في السواد وفجر ممتقع ! . .

كان أنطون تشيخوف يقول للكتاب الناشئين : لا يجوز للكاتب أن يجلس بين أربعة جدران ، وأن يستولد المواضيع من ذاته ، بل عليه أن يرى الحياة والناس ويلمسهما ، وعليه أن يستمع إلى أحاديث القوم كما هي لا كما يتخيلها ، وأن يسعى دائما إلى الأسفار والاحتكاك بمختلف العناصر والشعوب؛ ونصح الكاتب مرة أحدهم بقوله : سافر إلى اليابان ! . . ونصح غيره بقوله : سافر إلى أستراليا ! . .

وصادف الكاتب مرة صديقه تيلينشوف راكباً قطار الضواحي فبادره قائلا : لا تسافر إلى مصيفك الريفي ، لأنك لن تجد هناك شيئاً يذكر ، سافر إلى مكان قصي ، يبعد عن هذه المنطقة ألفاً أو ألفين أو ثلاثة آلاف فرسخ . . ارحل إلى آسيا ، وإلى البايكال في سيبيريا . . فالمياه هناك عذبة صافية ، وإذا لم تجد متسعاً من الوقت فسافر إلى جبال الأورال حيث الطبيعة مائعة خلابة . . . أجل تخط حدود بلادك إلى أوروبا حتى إذا ارعدت شعرت بأنك تقف على تربة آسيوية ! . . وبعد ذلك

ارجع إلى منزلك أو إلى مصيفك وأنت تحمل الشيء الكثير من المواد والمعلومات ، بل الكثير من القصص !. . ففي الأسفار تشاهد كيف تعيش الشعوب ، وتكون مرغماً على أن تقضي الليل في الحانات أو الأكواخ ، فتتقلب على الفراش الخشن ، والبراغيث تلسعك وتقض مضجعك .. وإذا ما أتممت ذلك كله فعد إلى واشكرني . . ونصيحتي إليك ألا تجلس في القطار الذي تسافر فيه إلا في عربات الدرجة الثالثة . . . امتزج بالشعب الساذج ، وإن لم تفعل ذلك فلن يبلغ مسمعيك شيء له أهميته . . فإذا أردت أن تكون كاتباً فما عليك إلا أن تبتاع تذكرة إلى منطقة نيجني، ومن ثم أبحر في نهر الفولغا، ثم في نهر كاما.

وعمل تيليشوف بنصيحة تشيخوف فأبحر سنة ١٨٩٤ في نهر الكاما الممتد وراء جبال الأورال ، وتعرف هناك إلى حياة المستعمرات الروسية التي يقطنها الفلاحون الروس ، ولمس بؤسهم الذي يشبه الخرافات والأساطير ، ولما عاد إلى موسكو كان يحمل في جعبته مجموعة رائعة من قصص سيبريا ، فتزاحمت عليها كبريات المجلات الروسية في ذلك الحين .

ويروي لنا تيليشوف قصة طريفة من حياة الكاتب فيقول :

كنت يوما أركب القطار فى الدرجة الثالثة فاجتمعت فيه بفلاح مسافر إلى قرية لوباسنا ، مصيف تشيخوف ، وبحكم جوارى لذلك الفلاح تجاذبنا أطراف الأحاديث ، فلما عرفت أنه من قرية لوباسنا قلت له : لى صديق فى قريتكم أعرفه . .

قال : من هو ؟ . .

قلت : الدكتور تشيخوف . . .

قال : ها . . أنطون باڤلوڤيتش ؟ . . قال ذلك مبتسماً مسروراً ، ولكن سرعان ما تجهم وجهه وأردف قائلاً : حقا إنه لشخص غريب الأطوار ، مشوش الأفكار !

قلت : من ؟ . .

قال : الدكتور أنطون باڤلوڤيتش . . تقلت له زوجتى العجوز وعالجها وشفاها . . ثم مرضت بدورى وعالجنى وشفانى . . ولما قدمت له أجراً رفض قبوله رفضاً باتاً . فقلت له : أى عزيزى أنطون باڤلوڤيتش كيف ترفض الأجر ، ومن أين ستعيش إن لم تتقاض منى ومن غيرى أجراً ... أنت لست بالرجل الغنى ! هلا فكرت فى مستقبلك قليلا . . تصور أنك فى ساعة من ساعات القدر العاتية ستضطر إلى ترك عملك ، فما أنت فاعل ؟ أتشتغل

بالتجارة وأنت تجهلها ! .. وإلى أين تذهب ويداك خاليتان من المال؟ .. فضحك أنطون باڤلوفيتش وقال : إذا أخرجت من عملي أتزوج من امرأة تاجرة ! .. قلت : وأية تاجرة تقبلك بعلاً لها وأنت لا مركز لك له أهميته . . . وكان جوابه أن ضحك ثانية كأن الحديث لا يعنيه البتة .

كان جليسي يحدثني بذلك وهو يلوى رأسه ويتنهد ، ثم أردف قائلا : أجل ! إنه لرجل طيب أنطون باڤلوفيتش . . غير أنه سيعاني مصاعب جمة في كبره . . إنه لا يدرك قسوة الحياة عند ما تكون بلا حساب ! .

أما هذه الحياة التي « بلا حساب » في حياة تشيخوف فتظهر بكل وضوح وجلاء في الحادث التالي :

اتفق الكاتب سنة ١٨٩٧ مع الناشر الألماني ماركس، صاحب دار « نيڤا » للنشر ، على أن يضع تحت تصرفه كل مؤلفاته التي كتبها والتي سيكتبها في حياته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل ونصت الاتفاقية على أنه لا يحق للكاتب أن يسمح لأحد بنقل شيء من مؤلفاته حتى ولو كان القصد من ذلك عمل الخير . أو مساعدة أية هيئة من هيئات الإحسان ! . . .

وبعد أن وقع الطرفان هذه الاتفاقية شرعت دار النشر « نيفا » فى طبع مؤلفات تشيخوف فى اثنى عشر مجلداً ، وعرضتها على الجمهور . فأدرت عليها بعد مرور سنة من الزمن أرباحاً طائلة عوضت عليها أضعاف ما دفعته للكاتب .

وما إن انتشر خبر هذه الاتفاقية حتى أحدث ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية الروسية . وأسرع ما كسيم غوركى فى كتابة رسالة لأنطون تشيخوف ينصحه فيها بأن يفسخ اتفاقيته مع ماركس . وقال له فيها :

« ابعثوا بهذا اللص إلى الشيطان . . . إننى أتقدم إليكم بالنيابة عن نفسى ، وبالإصالة عن دار « المعارف » أن تفسخوا اتفاقيتكم مع ماركس ، أعيدوا إليه الخمسة وسبعين ألف روبل مع الفائدة ونحن نتعهد لكم أن نساعدكم فى ذلك . إننا نضع تحت تصرفكم كل ما تحتاجون إليه من مال . . . ثم خولونا حق نشر مؤلفاتكم . أى ادخلوا شريكاً فى دار « المعارف » وتولوا بنفسكم نشر كتبكم . . . إننا نعدكم بتسليمكم كل الربح الذى نجنيه من نتاجكم الفكرى . وتظلون المالك الشرعى لذلك النتاج طيلة حياتكم . واتفاقكم معنا يمكنكم من طبع كميات كبيرة من

كتبكم . و بيعها بأسعار زهيدة تنافس أسعار ماركس . . إن الناس اليوم يقرؤونكم فى القرى ، كما يقرؤكم فقراء المدن ، وهؤلاء يتعذر عليهم دفع روبل وخمسة وسبعين كوبيكاً ثمناً للكتاب الواحد .. أى عزيزى ابعثوا بهذا الألمانى إلى الشياطين .. فوالله إنه لينهبنكم بكل قحة .. افسخوا اتفاقيتكم معه ، ودار «المعارف» تضمن لكم دخلاً سنوياً معلوماً قدره خمسة وعشرين ألف روبل . فكروا فى ذلك ! . . »

ولما كانت البلاد الروسية تتأهب فى ذلك الحين للاحتفال بمرور خمس وعشرين سنة على حياة تشيخوف الأدبية . اجتمع فريق من الأدباء والشعراء والعلماء ، والفنانين ، واتخذوا قراراً بالاحتجاج على اتفاقية ماركس و بعثوا له بالرسالة التالية :

« فى هذه الآونة التى تستعد فيها روسيا بأسرها للاحتفال بمرور ربع قرن على حياة أنطون تشيخوف الأدبية ، تبرز أمامنا قضية خطيرة تهم المجتمع الروسى قاطبة . ومفاد هذه القضية أن هناك عدم تناسب مريع بين ما قدمه و يقدمه أنطون بافلوفيتش من خدمات أدبية جليلة من جهة ، وعدم ضمان حالته المادية من جهة أخرى .

عمل أنطون بافلوفيتش ربع قرن فى إيقاظ ضمائر الناس وإنارة أفكارهم بما قدمه لهم من تآليف نفيسة خطها بمداد قلبه المحب الحى . وله الآن ملء الحق فى أن يجنى ثمار مجهوده الفكرى ، وإلا فالعار العار ! . .

إن المؤلفين والكتاب فى البلاد الغربية يصيبون القدر الكبير من الثروة والاستقلال مما يقدمونه لأقوامهم من تآليف . وأما تشيخوف روسيا فهو لا تنقصه الثروة فحسب — إذ لا يعقل أن يحلم الكاتب الروسى بالإثراء ـ بل إنه لا يملك أيضاً القدر المتوسط من المال الذى يمكنه من الركون إلى الراحة فى كبره دون أن يفكر فى قوت غده .

أجل . هذا هو المصير الذى ينتظر رجلا تتجه إليه اليوم أنظار الروس ، وهى تشع بوميض الفرح والابتهاج لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على حياته الأدبية الطافحة بروائع الإنتاج ، والتى وضعته فى مصاف الكتاب العالميين .

فمنذ أشهر فقط عمد بلد صغير مثل بولونيا إلى إظهار عواطفه الإنسانية السامية نحو شاعره القومى سينكيفتش . فأكرمه بسخاء فى يوبيله الأدبى الفضى . وأما تشيخوف روسيا العظمى

فيقابله الدهر الخؤون بحرمانه أبسط حق من حقوقه الماشية . . .

لقد اطلعنا على الاتفاقية المعقودة فيما بينكم وبين أنطون بافلوفيتش تشيخوف والتي يحق لكم بمقتضاها أن تضعوا يدكم على جميع مؤلفاته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل . والتي تخولكم الحق أيضاً فى أن تدعوا ملكية كل ما ينتجه فى المستقبل مقابل أجر زهيد لا يزيد على المكافآت العادية التي يدفعها أصحاب المجلات للأدباء والكتاب . والفارق بينكم وبين تلك المجلات أن هذه تكتفى بنشر المقال مرة واحدة وأما أنتم فتنشرون تآليف تشيخوف مراراً عديدة . وإننا لعلى علم تام بأنكم قد تمكنتم ، بعد مرور سنة على عقد تلك الاتفاقية ، من تعويض ما دفعتموه لتشيخوف أربعة أضعاف ! . . .

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه الأرباح الطائلة التي جنيتموها ، والتي ستجنونها فى المستقبل ، من بيع تآليف تشيخوف ؛ نصل حتما إلى نتيجة محزنة أليمة لا ريب فيها ، وهى أن الكاتب الكبير لم يصب إلا جزءاً ضئيلاً جداً مما يستحقه .

ولاتفاقيتكم هذه شرط سلبي آخر وهو إرغام أنطون تشيخوف على أن يقدم لكم كل تآليفه الجديدة مقابل ثمن بخس . فهذا

الشرط الجائر لا بد أن يكون حملاً ثقيلاً على نفس الكاتب . وسيترك أثراً سيئاً فى سير إنتاجه الأدبى .

وفى الاتفاقية نص آخر يفرض على الكاتب غرامة قدرها خمسة آلاف روبل على كل ملزمة مطبوعة فى أية دار نشر غير دار « ماركس » . وهذا يعنى أيضاً حرمان الكاتب من إصدار طبعات شعبية زهيدة الثمن ، فتكون جميع الكتب الحديثة — الصادرة فى طبعات شعبية — فى متناول الجميع حاملة أسماء كل الكتاب ، غير اسم عزيز علينا ، هو اسم أنطون بافلوفيتش تشيخوف . . .

إنا نرجوكم فى هذا اليوبيل الفضى الأدبى المقام للكاتب الكبير أن تعدلوا ذلك الجور غير المختار الكامن فى طيات اتفاقيتكم . و إنا لنفترض بأنكم وأنطون بافلوفيتش لم تتمكنا فى أثناء عقد الصفقة فيما بينكما من لمس ما ستسفر عنه تلك الصفقة من نتائج ، ولذا نتوجه إلى ضميركم وعدلكم أن تفسخوا الاتفاقية ، ونعتقد جازمين أن الاعتبارات الشكلية فى مثل هذه الأحوال يجب ألا تلعب دوراً هاماً على الإطلاق .

ونلفت أنظاركم إلى أن اتفاقيات مماثلة فسخت فى الماضى ،

ونضرب لكم مثلا بالاتفاقية المعقودة بين إميل زولا ودار « فيسكل » للنشر ، فقد عقدت هذه الاتفاقية بين الفريقين فى وقت لم يكن فيه زولا كاتباً كبيراً ، له قراؤه . . . ولما شغل زولا المكان اللائق به فى الأدب الفرنسى ، عمدت دار « فيسكل » إلى فسخ الاتفاقية وتحرير اتفاقية ثانية تضمن للكاتب الفرنسى الحرية والضمان » . .

ووقع هذه الرسالة عدد من الكتاب ، والعلماء ، والفنانين ، بينهم مكسيم غوركى وليونيد أندرييف ، وفيودور شاليابين ، وإيفان بونين ، ونيقولاى تيليشوف وغيرهم .

ولما بلغ تشيخوف خبر هذه الرسالة سأل القائمين بها أن يكفوا عن جمع التواقيع ، وألا يبعثوا بها إلى « ماركس » قائلا : لقد وقعت تلك الاتفاقية مختاراً ، ولا يليق بى أن أتخلى عن الالتزامات التى قطعتها على نفسى ، فإذا رَخُصْتُ فأنا الملوم ! لقد ارتكبت حماقة ، والسيد « ماركس » غير مسؤول عن حماقات غيره . . فى مرة أخرى سأكون حذراً ! . . .

وفى هذه الآونة . . أى حوالى سنة ١٨٩٥ ، تعرف تشيخوف إلى إيف تولستوى ، وتطور هذا التعارف إلى صداقة ،

ثم إلى حب واحترام ، فى حين أن الشخصين كانا على طرفى نقيض فى طريقتهما ، ونمط تفكيرهما ، ولا يتقابلان فى نقطة واحدة ؛ فالأول واقعى إلى أبعد حدود الواقعية والثانى صوفى مغال فى صوفيته . وبالرغم من ذلك كان تولستوى من جهته يجل تشيخوف أيضاً كفنان عظيم ، وإنسان سام ، وشخصية فذة ، ويغفر له عبادته للعلم والثقافة ، ويسر جداً لتآليفه ، ويعجب بها ، وهكذا توطدت عرى الصداقة بين الارستقراطى العظيم المتحدر من أسرتى فولكونسكى وتولستوى ، والرجل الشعبى الصاعد من الفلاحين الأرقاء ! . .

قال تولستوى مرة : تشيخوف هو بوشكين روسيا فى النثر !

وقال أيضاً : تشيخوف شخص فاتن ، متواضع ، لطيف المعشر ، ويسرنى أن أتحدث عنه . . .

وكان تشيخوف يقدر تولستوى العبقرى حق قدره ، ويدرك كنه قيمته الأدبية ، ويتبين لنا ذلك من المثل التالى :

أصيب تولستوى سنة ١٩٠٠ بمرض عرض حياته للخطر ، وكان تشيخوف طبيبه الخاص فأخذ يعالجه ويعوده يومياً ، وإذ خرج من عنده مرة قال لأصدقائه : « إننى أخشى موت

تولستوى ، ففقدانه سيحدث فراغاً عظيماً فى حياتى ، لأننى أولا لا أحب أحداً أكثر منه ، وثانياً لأن وجوده فى معترك الحياة الأدبية يسهل على المرء أن يكون أديباً ، وأن يتذوق الأدب حتى ولو أنه لم يفعل ولن يفعل للأدب شيئاً ! . فتولستوى يعمل للجميع ! .. وثالثاً لأن فى بقائه على قيد الحياة بناء قوة معنوية تكبح جماح الأذواق القبيحة ! .. ورابعاً لأن فى بقائه ما يحفظ الأحاسيس الأدبيـة واتجاهاتهـا على أن تظل فى مستوى عال معلوم » . ومن غريب تصرفات الدهر أن الشيخ تولستوى شفى من مرضه ، وبعد سنوات قلائل ، كان فى جملة من شيع تشيخوف إلى لحده ! ..

ففى سـنة ١٨٩٧ اكتشف الكاتب فجأة أنه مصاب بالتدرن الرئوى ؛ فسافر إلى بياريتس فى فرنسا للاستشفاء ، ثم انتقل إلى نيس . وفى سنة ١٨٩٨ عاد إلى روسيا فباع أملاكه فى قرية ميليخوفة ، وتوجه تواً إلى يالتا فى القرم برفقة شقيقته ماريا باڤلوفنا ، فابتاع هناك أرضاً فى قرية آوتكه ، وشيد عليها بيتاً صغيراً حسب ذوقه ، وأحاطه بحديقة غناء ، زرع فيها أشجاراً توحى له جو المناطق الروسية الشمالية التى كان يتعشقها ، ومع

ذلك كان ينظر إلى القرم وكأنه منفى لا مكان للاستشفاء والتمتع بجمال المناطق الطبيعية الجنوبية، مخالفاً فى ذوقه هذا معظم شعراء الروس وكتابهم، الذين كانوا يتمنون العيش عند سواحل القرم أو على جبال القوقاس .

ونرى الكاتب فى القرم كما عهدناه فى قرية مليخوفة، منشئاً، اجتماعياً، يعنى بمعالجة المرضى والضعفاء، كما أن مرضه لم يفقده حبه للنكتة، وخفة الروح، والتحدث عن صغائر الأمور، والمداعبات المستحبة .

وحدث فى خريف سنة ١٩٠٢ أن زاره فى بيته* فى القرم جماعة من الأدباء والكتاب بينهم غوركى، وبونين، وبعد أن تناولوا العشاء تطوع بونين بأن يقرأ على الحضور قصة مرحة لتشيخوف، وكان المؤلف قد نسيها لقدمها.. فأنصت الجميع لبونين، وقد سحرهم بحسن إلقائه، وإحكام لفظه، أما تشيخوف فقد عبس فى أول الأمر، ثم ابتسم ثم أخذه الضحك . ولما انتهى

* فيلا تشيخوف هذه لا تزال قائمة بالقرب من يالتا فى القرم، وهى اليوم متحف لآثار الكاتب الكبير، وكل شىء فى هذه الفيلا باق مكانه كما تركه، فهنالك غرفة نومه، ومكتبته، وملابسه، ومجموعة آخر رسائله . . فيخيل للزائر أن صاحبها آت بعد لحظات ! . .

بونين من القراءة علق الكاتب المريض بقوله : « أنتم محظوظون يا كتاب اليوم ، فالناس يخلعون عليكم آيات الثناء على ما تقدمونه لهم من قصص قصيرة . . أما أنا فقد مر بي زمن كان الناس فيه ينهالون على بالشتائم لأنني أكتب القصة ! . . لأنهم كانوا يعتقدون أن الكاتب لا يكون موضع الاحترام والاعتراف بالجميل إلا إذا وضع رواية كبيرة ! . . غير أنني بينت عقم هذه الفكرة ، وخرقت الحائط بجبيني من أجل القصص القصيرة .

وفي ٢٥ مارس سنة ١٩٠٢ تزوج الكاتب من إحدى ممثلات مسرح موسكو الفني ، وهي أولغا ليوناردوفنه كنيبر ، وكان زواجاً دام سنتين فقط .

وفي سنة ١٩٠٢ أيضاً انتخب تشيخوف ، وغوركي ، وكورولينكو* أعضاء في الأكاديمية الروسية ، لكن القيصر نيقولا الثاني أبى على غوركي عضوية الأكاديمية وحرمه منها قائلا : « إنني جد متألم من انتخاب غوركي » ، فما كان من تشيخوف إلا أن رفض عضوية الأكاديمية احتجاجاً على

---

* فلاديمير غالاكتيونوفتش كورولينكو (١٨٥٣ — ١٩٢١) كاتب روسي كبير ، ومن مؤلفاته البارزة « الموسيقار الضرير »

تصرف القيصر المشين ، ومناصرة لزميله الكاتب الشعبي الكبير .

وفى سنة ١٩٠٣ وضع الكاتب تمثيلية « حديقة الكرز » فقرر مسرح موسكو الفنى أن يمثلها فى ١٧ يناير سنة ١٩٠٤ ، أى فى ذكرى ميلاد تشيخوف ، وفعلاً مثلت فى حضوره ، وبعد الانتهاء من التمثيل وقف صاحب التمثيلية على المسرح والجمهور الغفير يقدم له الزهور ، والهدايا ، والبطاقات ، وكان الكاتب — وقد اشتد عليه المرض — يبدو شاحباً هزيلاً ، متصوراً أن الجمهور يجرى تجربة كبرى لتشييع جثمانه ! . .

وفى شهر يونيو سنة ١٩٠٤ ألح الأطباء على تشيخوف بأن يسافر إلى بادن فيلير فى ألمانيا للاستشفاء ، وقبيل مغادرته القرم زاره أصدقاؤه فرأوه هيكلا ضئيلا ، شمعى اللون ، وعيناه « لا تبتسمان » كما كانتا فى السابق . . فقال لهم : الوداع إننى ذاهب لأموت . . تحياتى إلى جميع الأصدقاء والمعارف ، وقولوا لبونين أن يواظب على الكتابة ، لأنه سيصبح كاتباً له شأنه .

وانتقل الكاتب إلى بادن ليقضى آخر أيامه فيها ، وفى ١٥ يوليو سنة ١٩٠٤ ، وبعد أن استنفدت جميع وسائل الطب ، أشار الطبيب بتقديم كأس من الشمبانيا ، ولما كان تشيخوف طبيباً

لم يفته المعنى من تقديم الكأس المذكورة ، فنهض فى فراشه وقال للطبيب بالألمانية : إننى أموت ! .. ثم رفع الكأس بيده وقال لزوجته مبتسما : لقد مضى علىّ زمن طويل لم أذق خلاله طعم الشمبانيا . : وأفرغ الكأس فى جوفه حتى الثمالة ، واضطجع بهدوء على جنبه الأيسر ، وسكت سكتته الأبدية .

وعند مطلع فجر اليوم التالى نقل جثمان الكاتب إلى الحدود الروسية فتلقاه أناس من الموظفين لم يسمعوا باسمه قط ! .. فوضعوا نعشه فى عربة كتب عليها « عربة الأسماك والمحارات » ثم وصل الجثمان إلى بطرسبورغ ولم يدر به أحد بسبب سوء تفاهم وقع فى إرسال برقية النعى. وفى السابع عشر من يوليو سنة ١٩٠٤ نقل الجثمان إلى موسكو ، وكان فى استقباله جمهور غفير من النواب ورجالات الفن والأدب والعلم يحملون مئات الأكاليل وباقات الزهور ، وكان ذلك الاستقبال بمثابة كلمة شعبية كبرى فى تقدير فداحة الخسارة .

ومن ثمّ شُيع أنطون بافلوفيتش تشيخوف إلى « دير العذارى » المعروف بدير نوفوديفيتشى بالقرب من موسكو ودفن فيه .

وفى ١٦ يناير سنة ١٩٣٣ أى بعد تسع وعشرين سنة على

وفاة الكاتب الروسى العظيم ، نبش القبر بحضور رهط من الناس يمثلون مسرح موسكو الفنى و « الجمعية التشيخوفية » ، وذوى الكتب وأخرجوا النعش المطوق بالزنك ، ونقلوه إلى مقبرة جديدة فى موسكو أعدتها الحكومة السوفاتية لنوابغ الكتاب والفنانين الروس ، ودفن فى ضريح فخم يليق بمقامه الأدبى ، وكان موقع الضريح فى « حديقة الكرز » تذكاراً لآخر تمثيلية وضعها الكاتب فى أواخر أيامه .

٭٭٭

كلمات مأثورة لتشيخوف :

« آن الأوان ! إن إحداثاً هائلة تقترب منا ، إن عاصفة قوية عنيفة تسير نحونا قدماً ، إنها تقترب شيئاً فشيئاً ، وستنسف من مجتمعنا السآمة والكسل وعدم المبالاة والنفور من العمل »

من مسرحية « الأخوات الثلاث »

« من الأقوال الدارجة إن الإنسان بحاجة فقط إلى ثلاث أذرع من الأرض ، والواقع أن هذه الأذرع الثلاث تلزم لجثة الإنسان فقط ، وأما الإنسان الحى ، فلا تسعه ثلاث أذرع من الأرض ، ولا بيتاً كاملا : وإنما الطبيعة قاطبة ، بل الكرة

الأرضية بأسرها ، ليتمكن فى فسحتها من إظهار جواهر روحه وخصائصها »

من قصة « عنب الثعلب »

« مهمة الإنسان إما فى لا شىء ، وإما فى شىء واحد : الحب المتناهى للقريب »

و « هناك طراز من الناس يتعمدون الهزء بغيرهم فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، وهم لا يستطيعون العبور بجائع أو منتحر دون أن يقولوا له قولاً لئيماً »

من قصة « الرجل المجهول »

« يقولون إن الفلاسفة والحكماء « لامبالون » ، وهذا قول غير حقيقى فاللامبالاة هى شلل النفس، هى الموت قبل الأوان».

من قصة « السيرة المملة »

« الزواج بلا حب كالعبادة بلا إيمان ، وهذا ضرب من النذالة لا يليق بكرامة الإنسان » .

من قصة « المبارزة »

« حياة البطالة والفراغ مشوبة بالقذارة »

من مسرحية « العم فانيا »

« ماذا تكون حالنا لو أن الحياة الإنسانية كانت مبنية على عدم مقاومة الشرور ؟ !

— لا شيء بتاتاً . . فعدم مقاومة الشرور يفسح المجال لعبث الإرادة الآثمة ، وهذه — والمدنية معهـا — لا تبقيان على الأرض حجراً على حجر ! . . .

— ومن يتبقى على الأرض إذن ! . .

— جماعات من الأشقياء ! . .

من قصة « أناس طيبون »

مسرحيات من فصل

أغنية التم

أشخاص الرواية :

ڤاسيلي ڤاسيليڤتش سڤتلوڤيدوف ، ممثل هزلي ، له من العمر ثمان وستون سنة .

نكيتا إيفانيتش ، ملقن المسرح ، شيخ أيضاً . .

(تجرى الرواية داخل مسرح ريفي ليلا . وذلك بعد الانتهاء من حفلة التمثيل . المسرح خاو . وإلى اليمين منه عدة أبواب غير مزينة وقد ثبتت بلا إحكام ، وكلها تؤدي إلى غرفة التزيين والملبس ، وفي صدر المسرح ، وإلى يساره ، أكوام من سقط المتاع . وفي وسطه مقعد مقلوب . الوقت ليل . . ظلمة حالكة . . . .
سفتلوفيدوف ، في لباس المهرج ، يخرج من غرفة التزيين والملبس ، يحمل شمعة بيده ويقهقه)

سفتلوفيدوف : حقاً . . إنها لنكتة . . بل ومهزلة المهازل . . لقد غفوت في غرفة التزيين والملبس . . انتهى التمثيل منذ وقت طويل وخرج كل من كان في المسرح . وأما أنا ، فبقيت في مكاني

هادئاً . . أرسل الشخير تباعاً ، إيه أيها الشيخ المتضجر . .
إنك لأشبه بكلب عتيق... تكومت على كرسيك وغفوت..
إنك لرجل ذكى تستحق الثناء (يصرخ) إيغوركا ! . .
إيغوركا ! . . يا للشيطان . . أين أنت يا بتروشكا ! . .
أغفوتما أيها اللعينان ؟ . . فليتنفس من فميكما مائة شيطان
وعفريت . . إيغوركا ! . . (يعدل المقعد ، ويجلس عليه
ويضع الشمعة على الأرض) : لا أسمع شيئاً سوى الصدى . .
نقدت اليوم كلاً من إيغوركا و بتروشكا ثلاثة روبلات
مقابل ما أبدياه من جهد فى التمثيل ثم خرجا . . وهيهات أن
أعثر عليهما ولو بمساعدة كلاب الأثر . . ويغلب على ظنى
أن هذين اللعينين أقفلا علىّ باب المسرح (يهز رأسه)
إننى ثمل . . أف . . كم صببت فى جوفى من النبيذ والجعة
من أجل « الجمعية الخيرية » يالله . . إننى أشعر كأن النار
تلتهم جسمى . . وكأن اثنى عشر لساناً تهجع فى فمى . . إنه
لأمر مستقبح حقاً (يتوقف) يا للغباوة . . . سكرتَ أيها
الأحمق العتيق (يخاطب نفسه) لقد كنت وأنت تجرع الخمر
فرحاً مسروراً دون أن تدرك الداعى لسرورك هذا . . أف . .

رباه .. إن خاصرتىّ تتمزقان ، ورأسى يتصدع ، والرعشة تنتاب جسمى كله ، ونفسى فاترة قاتمة . . وكأنها ترقد فى أعماق قبر . . فإذا كنت لا أشفق على نفسى ، فعلىّ على الأقل أن أشفق على شيخوختى . . (يتوقف) أجل . . الشيخوخة ، فكيفما راوغت وتشجعت وماجنت فلقد عشت أيامى . . ثمان وستون سنة انصرمت . . بَخٍ . . بَخٍ . . احتراماتى ! . . لا مفرّ من النهاية . . لقد أفرغت الزجاجة كلها فى جوفى ، ولم يبق فى قعرها إلا الشىء القليل ، والقليل جداً . . بقيت الثمالة أجل . . هكذا هى الحياة يا فاسيوشا . . فعليك — سواء أردت أم لم ترد — أن تعوِّد نفسك تمثيل دور الموت ! . . وهل ملك الموت فى مكان قصى ؟ (يتطلع إلى الأمام) ويلاه . . إننى أشاهد لأول مرة هذا المسرح فى ظلمة الليل ، بالرغم من مضى خمس وأربعين سنة على عملى فيه . حقاً إنه لشىء طريف (يقترب من صف الأنوار) لا أرى شيئاً . . . غير أن كوة الملقن تتراءى لناظرى قليلاً ، وهذا هو صندوق الرسائل ، ومِقْرأ النوتات أيضاً . . وكل ما تبقى ظلام حالك بل هوة دكناء سحيقة . . . إنها لأشبه بالقبر

الذى يختفى فيه الموت .. (أخ) .. ما هذا البرد ؟ ..
ريح تهب فى قاعة للسرح كما تهب فى مدخنة الموقد ..
ها هنا المكان الحقيقى الذى تستدعى فيه الأرواح ..
يا للشيطان .. إنها لحالة مرعبة تسرى الزعدة فى الجسم .
(يصرخ) : إيغوركا ، بيتروشكا .. يا للأبالسة .. أين أنتما ؟..
رباه .. مالى أردد هذه الشتائم ؟ ، علىّ ألا أستعمل الألفاظ
النابية .. وأن أهجر الخمر .. لقد أصبحت طاعناً فى السن
وحانت ساعتى .. فالناس فى الثامنة والستين من عمرهم
يتفرغون إلى الصلاة والعبادة ، ويتأهبون لاستقبال الموت ..
وأما أنا .. آه .. يا إلهى لا أزال أردد العبارات البذيئة ،
وهيئتى هيئة سكير مدمن ، وهأنذا أرتدى رداء المجون ..
كلا .. علىّ أن أسرع وألقى بهذا الرداء جانباً ، يا للهول إنى
إن بقيت على هذه الحالة طيلة الليل فيحتمل أن أهلك رعباً
(يذهب إلى غرفة التزيين والملبس ، وفى هذا الوقت يخرج
نيكيتا إيفانيتش من غرفة التزيين وهو يرتدى رداء
أبيض اللون ..)

سفتلوفيدوف : (يرى نيكيتا إيفانيتش ، فيصرخ من الذعر ، ويرتد

على عقبيه) من أنت ؟ .. ماذا تريد ؟ .. من تريد ؟ ..
(يضرب الأرض بقدميه) من أنت ؟ . .

نيكيتا إيفانيتش : هذا أنا !

سفتلوفيدوف : من أنت ؟

نيكيتا إيفانيتش : (يقترب منه على مهل) هذا أنا ، الملقن نيكيتا إيفانيتش .

سفتلوفيدوف : (يرتمي على المقعد خائر القوى ، و يتنفس بمشقة وهو يرتعش فرقاً) رباه من هذا ؟ أأنت نيكيتوشكا ؟ ماذا تفعل هنا ؟

نيكيتا إيفانيتش : إننى أقضى الليل فى غرفة التزيين ، فرجائى إليك ألا تطلع ألكسى فوميتش على جلية الأمر .. ثق بأننى لا أجد مكاناً آوى إليه .

سفتلوفيدوف : آه يا نيكيتوشكا ... دعانى الجمهور هذه الليلة ست عشرة مرة للظهور على المسرح ، وقدّم لى ثلاث باقات من الزهور ، وأشياء كثيرة أخرى . .. لقد كاد الناس يطيرون فرحاً .. لكن أحداً منهم لم يحاول إيقاظ هذا الشيخ السكير ولم يحمله إلى بيته . . نيكيتوشكا . . إننى شيخ . . ولى

من العمر الآن ثمان وستون سنة . . إننى مريض . . ونفسى
يتلاشى شيئاً فشيئاً .. (لقى بنفسه على كتف الملقن ويبكى)
لا تذهب يا نيكيتوشكا إننى شيخ عاجز .. لقد حانت ساعتى
يا للهول .. يا للهول . .

نيكيتا إيفانيتش : (بلطف واحترام) فاسيلى فاسيليتش . . لقد آن
لك أن تعود إلى بيتك هيا . .

سفتلوفيدوف : لن أذهب . . . ليس لى بيت . . كلا . . كلا . .
كلا . .

نيكيتا إيفانيتش : رباه . . أنسيت أين تسكن ؟

سفتلوفيدوف : لا أريد الذهاب إلى بيتى لا أريد . . إننى وحيد
ولا أهل لى ولا أقارب . لا زوجة لى ولا أطفال . . إننى
وحيد مثل الهواء فى الخلاء ! . . سأموت وان يذكرنى
أحد . . إننى أخشى البقاء فى بيتى وحيداً . . ليس هناك
من يشمل هذا السكير بعنايته . . ليس له من يهدهده ويحمله
إلى فراشه . . فمن أنا ؟ وأى نفع يرجى منى ؟ ومن يحبنى !
لا يحبنى أحد يا نيكيتوشكا . .

نيكيتا إيفانيتش : (بعين دامعة) كفاك أن الجمهور يحبك !

سفتلوفيدوف : لقد خرج الجمهور بعد التمثيل وتفرق ، إنه يغط فى نومه الآن وقد أسدل ستار النسيان على ممثله الهزلى ، كلا .. إننى أصبحت على هامش الحياة . . وليس لى من يحبنى فلا زوجة لى ولا أطفال . .

نيكيتا إيفانيتش : أهذا هو ما يحزنك ؟

سفتلوفيدوف : إننى إنسان مخلوق حى . . وتجرى فى عروقى دماء لا ماء ! . . إننى شريف ومتحدر من أرومة كريمة . . كنت قبل أن أتردى فى هذه الهوة جندياً فى مدفعية الجيش ، كنت شاباً قويا جميلاً أميناً جريئاً متحمساً . . رباه أين ذهب ذلك كله ؟ ثم وأى ممثل كنت فيما مضى من الأيام ؟ (ينهض مستنداً إلى يد الملقن) أين ذهب ذلك كله ؟ أين هى تلك الأيام ؟ . . . رباه إننى لأتطلع إلى هذه الهوة الآن وأذكر كل شىء ، لقد ابتلعت هذه الهوة خمساً وأربعين سنة من حياتى ، وأية حياة حافلة كانت يا نيكيتوشكا ؟ . . إننى لأسدد نظرى إلى أعماق هذه الهوة فأرى فيها كل شىء واضحاً بجميع دقائقه ، أرى مرح الشباب

والإيمان ، وحرارة العواطف ، وحب النساء ، أجل . .
النساء يانيكيتوشكا . .

نيكيتا إيفانيتش : آن لك أن تنام . ڤاسيلى ڤاسيلتش ، هيا . هيا . .

ستلوفيدوف : أذكر أنه حدث — لما كنت ممثلا فتياً ، وكانت حرارة عواطفى فى أوجها — أن أعربت لى إحدى الفتيات عن إعجابها بتمثيلى وأحبتنى . . كانت فتاة رشيقة ، ممشوقة القد كشجرة الحور ، غضة ، بريئة ، شريفة ، تلتهب غيرة مثل فجر الصيف ، فابتسامتها اللطيفة تتألق نوراً ، وعيناها الزرقاوان تشعان بالبريق ، لو سلطتا على ظلام حالك لبددتاه وانتشر الضياء . إن أمواج البحر تتكسر على الصخور ، ولكن على أمواج شعرها المجعد تتكسر الجلاميد وكتل الجليد ! . . أذكر مرة أننى وقفت أمامها ، كما أقف أمامك الآن وكانت رائعة وقتئذ أكثر من أى وقت مضى فألقت على نظرة لن أنساها حتى فى القبر ، كلها دلال . . قطيفة مخمل . عمق بريق . . صبا . . سكرت لمرآها هذا ، وسقطت أمامها راكعاً ، وقد غمرنى شعور بأننى أسعد مخلوق (يتابع بصوت خافت) وكانت تقول لى : اهجر المسرح . . اه . . . جر . .

ا . . . . مـــ . . . ر . . ح . . . أتفهم ما أقوله لك ؟ .
كان بوسعها أن تحب ممثلاً لكنها أبت على نفسها أن تكون زوجة له . . وأذكر أنني مثلت فى ذلك اليوم دور الماجن المنحط . . . كنت أقوم بدورى وأحس أن عيني تتفتحان على حقيقة ما . . لقد أدركت إذ ذاك أن ما يسمونه فناً مقدساً إن هو إلا خداع وهذيان ، وأننى لست إلا عبداً مهرجاً وألعوبة يتلهى بها الناس . . أجل فهمت الجمهور وقتئذ فلم أعد أثق بالتصفيق ولا بباقات الزهور ، ولا بالتظاهر الحماسي . . كان الجمهور يصفق لى ويبتاع رسمى ومع ذلك كنت غريباً عنه ، بل رجساً ، فاجراً على وجه التقريب ، كان يتحكك بى ويتعرف إلى لإرضاء خيلائه فقط ، لكنه لا يتنازل أن يزوجنى إحدى شقيقاته أو بناته . . إننى لا أصدق الجمهور (يهبط على المقعد) إننى لا أثق به . .

نيكيتا إيفانيتش : لقد ضمر وجهك يا ڤاسيلى ڤاسيليتش فغدوت مخيفاً . أرجوك أن تذهب معى إلى بيتك . .

سفتلوفيدوف : كنت فى شبابى أتمتع بتمام صحتى وعافيتى ، وبعد تلك القصة — قصة الفتاة — أصابنى السقم ، وأخذت

أتسكع بلا هدف ، وأعيش مضطرباً ذاهلاً . لقد مثلت أدوار الهازلين الماجنين ، فأفسدت العقول والنفوس ، فانحط لسانى واعوج ! . . وفقدت صورتى وملامحى ! . . لقد مضغتنى تلك الهوة السوداء وابتلعتنى ... إننى لم أشعر بذلك سابقاً وأما اليوم فقد استيقظت فتطلعت إلى الخلف فوجدت نفسى أجر ثمانى وستين سنة . وجدت الشيخوخة . . . لقد غنيت أغنيتى (ينتحب) لقد غنيت أغنيتى . .

نيكيتا إيفانيتش : عزيزى فاسيلى فاسيليتش . . أبتاه . . هدئ من روعك (يصرخ) بتروشكا ! . . إيغوركا ! . .

سفتلو فيدوف : لدىّ المواهب ، والقوة ، والفصاحة ، وفى هذا الصدر (يدق بقبضته على صدره) أوتار جمة تصدح بجميع الألحان ، آه . . سأختنق . . اسمع أيها الشيخ . . دعنى أتنفس قليلاً . . اسمع هذا المقطع من رواية « بوريس غودونوف » :

« ظل إيفان الرهيب تبنانى . . .
ومن القبر أحيا ديمترى . . .
وبذا الاسم دعانى . . .

هييج الشعوب إلى جانبي .
وكان « بوريس » من قرباني . . . .
أنا ولي العهد . . كفاني الرضوخ لتلك البولونية
المعتزة . . كفاني . . . » .
والآن (بسرعة) قِف . . استمع إلى هـذه
لمقطوعة . . من «الملك لير» تصور سماء تكاثفت
فيها الغيوم القاتمة . . والمطر يهطل . . والرعد
ر ر ر . . . والبرق ز ز ز . . . ثم :
« اغضبي أيتها الرياح . .
واعصفي . . حتى تتمزق الوجنات . .
وأنت أيتها المياه الماطلة . .
تدفقي كريح زعزع . .
واغمري الأبراج
وابلغي « ديك الرياح » . .
وأنت أيتها النيران الكبريتية المتأججة . .
يا مكتسحة الأحراج . .
يا نذيرة سهام الرعود القاصفة . .

هبّى فوق رأسى . . وألهبى شيبتى
وأنت أيتها الرعود السماوية المزعزعة
انقضى على الطبيعة دفعة واحدة .
واسحقى الكرة الأرضية بأسرها . .
و بعثرى فى الهواء تلك البذور
التى تلد الناس الكافرين بالنعم . . .

(على عجل) إلىّ إلىّ بكلمات النديم . . هات جواب النديم إذ ليس لدى متسع من الوقت . . .

نيكيتا إيفانيتش (يمثل دور النديم) : « إيه إشبينى . . أفضل لك أن تقبع تحت سقف البيت من أن تتسكع فى الخارج تحت هذا المطر المنهمر . . فنصيحتى لك أيها العم أن تسأل بناتك الصفح ، فهذه ليلة ممطرة ، لا تميز فى مصيبتها بين الحكيم والأحمق » . .

سفتلوفيدوف : « وأنت أيتها النيران والعواصف . .
ازأرى بكل ما أوتيت من قوة . .
اعصفى ، وحطمى ، واحرقى . .
فما الذى يدعوك إلى الشفقة بى ؟ . .

أنتن لستن بناتى . .
ولن ألومكن على قسوتكن . .
ولستن من أورثتهن ملكى . .
وأوليتهن حنانى وعطفى » . .

قوة . . موهبة . . فنّان . . لنأخذ شيئاً آخر قديماً يهزّ العواطف . لنأخذ مقطوعة من « هاملت » . . (يقهقه بملء شدقيه) سأشرع ، هيّا (يمثل دور هاملت) . « ها هم العازفون على المزامير . . هات المزمار (يوجه الكلام إلى نيكيتا إيفانيتش) يخيل إلىّ أنك تضايقنى كثيراً » .

نيكيتا إيفانيتش : « ثق أيها الأمير أن الداعى لذلك كله هو حبى لك و إخلاصى للملك » .

سفتلو فيدوف : « إن هناك أموراً لا أدرك كنهها كل الإدراك . اعزف لى شيئاً »

نيكيتا إيفانيتش : « لا أستطيع أيها الأمير » .

سفتلو فيدوف : أناشدك الله أن تعزف شيئاً » .

نيكيتا إيفانيتش : « إننى لا أحسن العزف على المزمار بتاتاً » .

سفتلو فيدوف : « إن العزف على المزمار سهل كالكذب ! . . .

خذ المزمار بيديك هكذا ، وضع شفتيك هنا ، وأصابعك
هناك . . واعزف . . . »

نيكيتا إيفانيتش : « إننى لم أتعلم العزف قط » .

سفتلو فيدوف . « احكم الآن أنت بنفسك . . . من أنا بنظرك ؟
أتريد أن تلعب بى وأنت عاجز عن اللعب بهذا المزمار ؟...
اعتبرنى كما تهوى وتحب ، وبوسعك أن تذيقنى مر العذاب ،
لكنك لن تستطيع اللعب بى ، (يضحك سفتلو فيدوف ،
ويصفق ويخاطب نفسه قائلاً) : عافاك . . أعد ، عافاك ،
يا للشيطان . . أية شيخوخة هذه ؟ . . إنه لمن السخف أن
أدعوها شيخوخة . . وإنما هى قوة تجرى فى عروقى . . هذا
هو الشباب . . النضارة . . الحياة . . فحيث تكون المواهب
يا نيكيتوشكا لن يكون محل للشيخوخة . . . آه . . وهنت
قواى . وخارت . . قف دعنى أستعد شعورى . . آه .
يا إلهى . . رباه . . استمع الآن إلى هذه المقطوعة التى تطفح
رقة وعذوبة ، إنها الموسيقى بعينها صه . . صه :

« أوكرانيا . . . لياليها هادئة . . وسماؤها صافية شفافة . .
ونجومها ساطعة براقة . . لياليها تقهر الوسن . . وتأبى

الهواء . . وتكتفى بالنسيم ليداعب أوراق شجر الحَوْر الفضية . .»(يسمع قرقعة عند الباب و يصرخ) من هناك ؟. .

نيكيتا إيفانيتش . . أظن أن بتروشكا و إيغوركا قد عادا .. مواهب يا فاسيلى فاسيليتش ... مواهب ! . .

سفتلو فيدوف . . (يتطلع إلى الباب حيث القرقعة و يصرخ) إليّ يا نَسْرىّ . . (ثم يخاطب نيكيتا إيفانيتش) هيًّا لنرتد ملابسنا . . ليست هنالك أية شيخوخة ، وكل ما يقال فى هذا الصدد إن هو إلاّ لغو وهذر . . (يضحك مغتبطاً)ما الذى دهاك يا نيكيتوشكا . . ما الذى يدعوك إلى البكاء و يحملك على التَّنَحْنُح؟ كلا أيها الشيخ كلا ...هذا أمر غير مستحب ، تشجع . ارفع رأسك (يحتضنه ودموعه تسيل على خديه) لا لزوم للبكاء ، فحيث الفن والمواهب ، لن يكون مجال للشيخوخة ، والعزلة . . والمرض ، بل الموت نفسه يكون بعيداً . (يبكى هو أيضاً) إيه نيكيتوشكا . . . لقد غنينا أغنيتنا . . . وما هى المواهب التى بقيت لدينا . . إننى لَيمونة قد عصرت ! . . إننى أسطوانة من جليد مدلاة !. . إننى مسمار يعلوه الصدأ . . وأنت . . أنت . . برذون مسرح عتيق . .

هيّا بنا . . (يذهبان)

سفلتوفيدوف : أين هى مواهبى الآن ؟ إننى لم أعد أصلح للمسرحيات الجديدة ، بل ولا لدور فى حواشى هذه المسرحيات. . أتذكر ذلك المقطع من « عُطيل » يا نيكيتوشكا ؟« أسألك الصفح يا راحتى . . ويا رفاهيتى . . واصفحوا عنى أيها الجنود . . . ويا معارك المجد والفخار . . ويا حصانى الجموح . . ويا ذوى الطبول . . ويا نداء الأبواق . . وعلم المملكة . . ويا مجالى الشرف والعظمة . . ويا بطولة المقاتلين الأمجاد . . اصفحوا عنى جميعاً . . »

نيكيتا إيفانيتش : مواهب . . مواهب . .

سفتلوفيدوف : إليك هذا المقطع أيضاً من مسرحية « ويلٌ من الحكمة » لغريبويدوف : « فلأنطلق من موسكو . . . . إننى لن أعود إلى هذا المكان ثانية . . إننى لأركض دون أن ألتفت يمنة أو يسرة . . أركض فى هذا الكون باحثاً عن ركن تلجأ إليه الكرامة المهانة . . هات العجلة .. هاتها »

(يخرج مع نيكيتا إيفانيتش) .

(ويسدل الستار ببطء .)

الدُّب

أشخاص الرواية :

إيليفا إيفانوفنا بوبوفا — أرملة . على وجنتيها بعض النقر .
غريغورى ستبانوفيتش سميرنوف — غنى فى العقد الرابع من عمره .
لوقا — خادم بوبوفا ، شيخ طاعن فى السن .

(فى بيت بوبوفا . وفى غرفة استقبالها . بوبوفا فى لباس الحداد . تمسك بيدها صورة فوتوغرافية . ولا ترفع النظر عنها ولوقا الخادم يقف أمامها) .

١

لوقا : مولاتى . . إنك لتجلبين الأذى لنفسك فقط . . فالخادمة والطاهية خرجتا تتنزهان ، وتجمعان التوت البرىّ من الأحراج . وكل كائن حىّ . . يسر فى هذا الطقس اللطيف . . حتى إن قطتنا تسعى إلى ما يسرها ، فها هى تروح وتغدو فى الفناء تصطاد العصافير . .

وأما أنت . . . فإنك تقبعين طيلة النهار فى الغرفة ، كأنك فى دير . لقد انقضت سنة كاملة ، وأنت حبيسة فى دارك .

بوبوفا : لن أخرج من هذا البيت أبداً . . وما الذى يدعونى إلى الخروج ؟ ؟ . . انتهت حياتى ! فهو يرقد فى القبر ، وأنا

قبرت نفسي بين هذه الجدران الأربعة . فكلانا ميت ! . .

لوقا : لا . . لا سمح الله . . يا مولاتى . . توفى الله نقولاى ميخايلوفتش ، فهذه إرادته ، وللمرحوم ملكوت السموات. وأما أنت ، فقد حزنت على زوجك ما فيه الكفاية ، ولا يجوز لك أن تقضى العمر كله فى البكاء والنحيب . وأقول لك بهذه المناسبة : إن عجوزتى أيضاً قد توفاها الله فى يوم من الأيام . فحزنت عليها ، وبكيتها شهراً . ثم سلوتها . . لأن الحداد عليها طول العمر . . لن يبعثها ثانية إلى الحياة (يتنهد) . . لقد نسيت جيرانك كلهم يا سيدتى ، وأقلعت عن الأسفار والرحلات ، وغدوت لا تقبلين الزائرين . . وأستمحيك العذر إن قلت لك إننا أصبحنا نعيش مثل العناكب ولا نرى للنهار ضوءاً . أما رداء خدمتى ، فقد أكلته الفيران ، لعدم استعمالى إياه . . ربما كنتِ على حق فى منهجك هذا لو لم يكن حواليك أناس طيبون ، غير أن المنطقة تعج بالسادة الأفاضل ، ففى قرية ريبلوفه يعسكر طابور وضباطه يقطرون حلاوة . . . وهناك فى كل أسبوع حفلة راقصة وفى كل يوم تعزف الموسيقى العسكرية . . إيه

يا مولاتى . . إنك لصبية جميلة فاتنة . . إنك مزيج من الدم والحليب . . ولا ينقصك شيء سوى الحياة والابتهاج . . فالجمال لا يمنح للمرء إلى الأبد . . فإذا ما انقضت عشر سنوات ، من عمرك . . . وجدت نفسك تواقة للتبختر فى الطرق . . ، تجرين ثوبك الفضفاض ، وتثيرين الغبار فى أعين الضباط . . فأسرعى . . قبل فوات الأوان ! . .

بوبوفا : (بإصرار) أرجوك ألاّ تعود إلى مثل هذا الحديث . . فأنت تدرى تماماً أن الحياة فقدت كل قيمة فى نظرى منذ أن توفى نيقولاى ميخايلوفتش . و إذا ما تراءى لك أننى حيّة ، فما ذلك إلا مظهر خارجى لا غير . . لقد أقسمت بألا أنزع لباس الحداد وألا أشاهد النور حتى أنزل القبر . . أسامع أنت ؟ . . فليكن شبحه شاهداً على ما أكنه له من حب . . أجل . . لا أفشى سراً إن قلت لك إنه كان يعاملنى معاملة جائرة قاسية . . بل ولم يكن أميناً فى حياته الزوجية . . ومع ذلك . . فإننى سأظل مخلصة له حتى النفس الأخير . وسأبرهن له ، كيف يكون حبى له ، وسيرى فى ذلك العالم الآخر أنى لا زلت أمينة له ، كما كنت قبل مماته .

لوقا : أليس من الأفضل لك يا مولاتى أن تخرجى إلى الحديقة
لتتنزهى بدلا من إضاعة الوقت فى مثل هذا الحديث ؟ . .
أتأمرين أن أعد لك الحصان « توبى » أم « المائل » ؟

بوبوفا : آه . . . . (تبكى) .

لوقا : مولاتى . . أماه « ماتوشكا » . . . ما بك ! . . ليكن
المسيح معك . .

بوبوفا : لقد أحب المرحوم الحصان « توبى » ، وكان دائماً
يمتطيه فى زياراته لأسرتى كورتشاغين وفلاسوف ، أتذكر
كيف كان يجذب لجامه بشدة ، ويسوسه ببراعة تامة !
أتذكر تلك الطلعة الفروسية الجميلة ؟ آه . . مسكين «توبى»
إنى آمر السائس بأن يقدم له حصة إضافية من الشوفان . .

لوقا : تأمرين أمراً . .

(رنين جرس عنيف)

بوبوفا : (وقد أصيبت برعدة) من ذا ؟ قل للزائر : إننى لا أقابل
أحداً أبداً . .

لوقا : سمعاً وطاعة (يخرج)

٢

(بوبوفا وحدها)

بوبوفا : (تنظر إلى رسم فوتوغرافى) ها أنت ترى يا نيقولاى كيف أستطيع أن أحب وأسامح ، وثق بأن حبي لن ينطفئ إلا عندما يقف قلبي عن نبضه . (تضحك من خلال الدموع) ألا تخجل من سلوكك نحوى؟ . . إننى زوجة أمينة ، أقفلت الباب على نفسى ، وسأظل أمينة لك حتى القبر . . آه منك ألا تخجل من أفعالك؟ لقد كنت تخوننى ، وتسبب لى المشاكل ، وتتركنى فى البيت وحيدة أسابيع بكاملها . .

٣

(بوبوفا ولوقا)

لوقا : (يدخل مرتبكا) فى الباب رجل يريد مقابلة مولاتى

بوبوفا : ألم تقل له إننى منذ وفاة زوجى لم أقابل إنساناً ؟

لوقا : قلت له ذلك ، إلا انه أبى الإصغاء إلىّ ، وقال إنه أتاك فى مسألة هامة جداً . . .

بوبوفا : إننى . . لا أقابل زائرين أبداً .

لوقا : أفهمته حقيقة الأمر ، لـكنه رجل ملحاح ، شتام ، اقتحم البيت عنوة ، وهو الآن فى قاعة الطعام

بوبوفا : (مضطربة) لا بأس، دعه يتفضل . . يا له من جاهل . .

(يخرج لوقا)

بوبوفا : هؤلاء الناس ، صعاب المراس . ما الذى يريدونه منى ! لماذا يعكرون على راحتى وهدوئى ؟ (تتنهد) كلا . . لا بد من الانتقال إلى الدير (تتأمل قليلا) أجل إلى الدير .

٤

(بوبوفا ، لوقا ، سميرنوف)

سميرنوف : (يدخل ويخاطب لوقا) حقاً إنك لشيخ سمج، ثرثار، حمار ، (وإذ يرى بوبوفا ينحنى أمامها باحترام) سيدتى لى الشرف بأن أقدم لك نفسى . أنا غريغورى ستيبانوفيتش سميرنوف ضابط فى المدفعية متقاعد ، ومالك أراض ، اضطررت إلى إزعاجك لسبب هام جداً .

بوبوفا : (دون أن تقدم له يدها) وما الذى تريده !

سميرنوف : كان لى الشرف بأن أكون من معارف المرحوم زوجك . وتوفى وهو مدين لى بمبلغ ألف ومائتى روبل ، ولما

كانت عليّ فوائد مستحقة الدفع غداً للبنك الزراعى أتيتك راجياً أن تتفضلى ، وتدفعى لى اليوم ، المبلغ المطلوب من زوجك .

بوبوفا : ألف ومائتا روبل ؟ . ولأى شئ ؟

سميرنوف : هى ثمن الشوفان .

بوبوفا : (تتنهد وتقول للخادم لوقا) لا تنس يا لوقا أن تطلب من السائس أن يقدم حصة إضافية من الشوفان للحصان « توبى » .

(يخرج لوقا)

بوبوفا : (تخاطب سميرنوف) إذا كان المرحوم نيقولاى ميخايلوفتش مديناً لك بالمبلغ الذى ذكرته ، فمن البديهىّ أن أقوم بتسديده . لكننى الآن لا أحمل المبلغ المطلوب فأرجوك أن تنتظر إلى بعد غد حتى يعود وكيلى من المدينة وآمره أن يسدد الحساب . أجل ، لن أتمكن الآن من تلبية طلبك ولا بأية صورة كانت . يضاف إلى ذلك أن فى هذا اليوم تكتمل السنة على وفاة المرحوم زوجى ، وترانى فى حالة نفسية لا أرغب معها البحث فى مسائل مالية .

سميرنوف : وأنا الآن فى حالة نفسية أشعر معها بأننى إن لم أدفع الفوائد غداً للبنك الزراعى فستحجز أملاكى ، وستنقلب حياتى رأساً على عقب .

بوبوفا : بعد غد فقط تقبض مالك . . .

سميرنوف : إننى بحاجة ماسة إلى المالِ اليوم ، وليس بعد غد .

بوبوفا : المعذرة . إننى عاجزة عن دفع المبلغ اليوم .

سميرنوف : وإننى عاجز عن الاصطبار حتى بعد غد .

بوبوفا : وماذا أفعل مادمت عاجزة عن الدفع الآن ؟

سميرنوف : إذن أنت عاجزة عن الدفع ؟

بوبوفا : أجل عاجزة .

سميرنوف : وهذه هىَ كلمتك الأخيرة ؟

بوبوفا : أجل الأخيرة .

سميرنوف : الأخيرة نهائياً ؟

بوبوفا : نهائياً .

سميرنوف : أشكرك جداً . . فلنحرر ذلك (يهز كتفيه) ويريدون منى أن أكون هادئ الأعصاب . سيقابلنى المحصل فى الطريق ويسألنى : ما الداعى إلى غضبك هذا ياغريغورى

ستيبانوفيتش ؟ فأجيبه : حلمك . . وكيف لا أغضب ؟ إننى بحاجة قصوى إلى المال . . سعيت فى طلبه منذ أمس الباكر ، وعرّجت على مدينىّ جميعاً ، ولم يدفع لى أحد منهم دينه . . لقد كدت أهلك مثل الكلب ... قضيت ليلى فى العراء منطوياً على نفسى إلى جانب برميل ماء . . . وأخيراً جئت إلى السيدة ميخايلوفتش بعد أن قطعت مسافة سبعين فرسخاً مسافراً على أمل أن أقبض دينى وإذا بها تطعمنى « حالات نفسية » ، أفلا يحق لى أن أغضب ؟

بوبوفا : أظن أنى قلت لك بصريح العبارة : عندما يعود وكيلى ، تقبض مالك . .

سميرنوف : إننى لم آت إلى الوكيل وإنما أتيت إليك . ولأى عفريت يلزمنى وكيلك ؟ عفواً ! . .

بوبوفا : إننى لم أعتد سماع مثل هذه العبارات النابية ، واللهجة المستغربة ، ولن أصغى إليك أكثر مما أصغيت . . .

(تخرج بسرعة)

(سميرنوف وحده)

سميرنوف : ياللدلال .. حالة نفسية .. إن سنة انقضت على وفاة

زوجها . . ولـكن أينبغى أن أدفع الفائدة أم لا ؟ هه . . مات زوجها . . وحالة نفسية . . والوكيل سافر إلى مكان ما . . وغير ذلك من الخزعبلات . . ماالعمل ! أأفر من أصحاب الديون فى منطـاد ؟ . . أم أضرب رأسى بالحائط ؟ ذهبت إلى غروزديف فلم أجده فى بيته . . . وذهبت إلى ياروشينيتش فاختبأ ، وذهبت إلى كوريتسين فتشاتمنا وكدت أقذف به من النافذة . . وذهبت إلى مازوتوفا فوجدتها مريضة بالكوليرا . . وجئت إلى هذه وإذا هى فى «حالة نفسية» لا تسمح لها بالدفع . . لم أقبض من هؤلاء الأشقياء شيئاً ، والسبب فى ذلك أننى كنت قد دللتهم أكثر مما يستحقون . . أأنا مربية لهم أم خادمة ؟ أجل . لاطفتهم فى السابق كثيراً . وأما الآن ، فسيعرفوننى . . إننى لن أسمح لأحد بممازحتى أبداً . وسأظل مقيماً هنا إلى أن أقبض حقى . إننى جدُّ حانق اليوم ، ونفسى من الحنق منقضبة . . . رباه . . . إننى تعب اليوم

(يصرخ) أيها الخادم ! . .

٦

(سميرنوف ولوقا)

لوقا : (يدخل) ماحاجتك ؟

سميرنوف : ايتنى بقدح من الكفاس* أو الماء . . .

(يخرج لوقا)

سميرنوف : (يخاطب نفسه) وأى منطق هذا ؟ . . رجل بحاجة ماسة إلى المال ، ويهدد نفسه بالشنق إن لم يحصل عليه فيأتى إلى هذه السيدة طالباً دين زوجها ، فتأبى الدفع لأنها غير مستعدة اليوم للحديث فى المسائل المالية .. حقاً إنه لمنطق نسوى مُشوّش .. إنه الذى حدا بى إلى عدم حب النساء أو التحدث إليهن ، وغدوت أشعر أنه يهون علىّ الجلوس على برميل بارود من أن أجلس إلى جانب امرأة وأتحدث إليها ! . . إننى جد مغتاظ من هذه السيدة . وأحس برعشة تنتاب جسمى من شدة الغيظ . . إنني لا أطيق رؤيتها ولا رؤية مثيلاتها من المخلوقات الشعرية ، ويبدو لى أننى إن

---

* شراب روسى يستخرج من الخبز الأسود .

رأيت إحداهن ولو عن بُعد فسترتعد فرائصى ، وسأصرخ
طالباً من الديدبان النجدة . .

٧

(سميرنوف ولوقا)

لوقا : (يدخل و يقدم له الماء) السيدة مريضة . وهى غير مستعدة
. لمقابلة أحد.

سميرنوف : اُخرج ! . .

(لوقا يخرج)

سميرنوف : تقول إنها مريضة ولا تستقبل أحداً ، وماذا يهمنى
من أمرها ؟؟ . إننى باق هنا ولن أخرج حتى تدفع لى مالى..
(يخاطبها بصوت عال) إن بقيت على فراش المرض
أسبوعاً فسأبقى إلى جانبك أسبوعاً ، و إن بقيت سنة فسأظل
إلى جانبك سنة أيضاً . . سترين كيف آخذ حقى منك . .
يا أماه « ماتوشكا » . . . ثقى بأن حدادك ، والنقر التى على
وجنتيك لن تؤثر فىّ . . إننى أدرى بهذه النقر ! . .
(يصرخ من النافذة مخاطباً سائق عربته) سيمون ! . .

ارفع العدة عن الفرس . . إننا لن نرحل عن هذا المكان
على وجه السرعة . . إننى باق هنا . . وأما أنت فاذهب
وقل للجماعة فى الاصطبل أن يقدموا الشوفان للخيل . .
آه منك أيها البهيم ألا ترى أن العنان اشتبك بساق الفرس
الأيسر ؟ .

سيمون : (متهكما) لا بأس ! .

سميرنوف : (يرد عليه) سأريك ما المعنى من لا بأس . . .

سميرنوف : (يبتعد عن النافذة) . شىء ردىء .. حر لا يطاق . .
كلهم يرفض دفع المال . . . وبالأمس قضيت ليلة على أسوأ
حال ممكنة . . . وهذه السيدة تقول لى إنها تجر ثوب الحداد . . .
ونفسيتها مضطربة . . . آه إننى أشعر بوجع فى رأسى . . .
أأشرب فودكا ؟ . . . أم ماذا ؟ (يصرخ) أيها الخادم . . .

لوقا : ما الذى تريده ؟

سميرنوف : اتينى بكأس من الفودكا . .

(لوقا يخرج)

سميرنوف : (يجلس ويقلب النظر فى نفسه) لا بأس بى . .
هيئة حسنة . لباسى مغبر ، وحذائى موحل ، وجسمى قذر ،

وشعرى غير مرتب ، وحلتى معفرة بالتبن . فيأيتها السيدة . ما الذى حدا بك لأن تستقبلينى كقاطع طريق ؟ . . (يتثاءب) حقاً . . إنها قلة حياء منى أن أظهر فى غرفة استقبال كهذه وأنا على هذا الشكل . . ولكن لا بأس من ذلك ، فإننى لم آت إلى هذا البيت ضيفاً و إنما دائناً ، ولا يطلب من الدائنين أن يظهروا بهندام حسن .

لوقا : (يدخل و يقدم الفودكا) أتسمحون لنفسكم بالبقاء طو يلا هنا يا سيدى ؟

سميرنوف : (بحنق) ماذا ؟

لوقا : إننى . . إننى . . لا شىء . . لقد أردت . .

سميرنوف : مع من تتكلم . . اُصمت ! . .

لوقا : (على جانب) لقد جلس هذا العفريت على رأسنا . فياله من حمل ثقيل . .

(لوقا يخرج)

سميرنوف : إننى حانق . .وقد بلغ حنقى درجة أحس معها كأننى سأسحق العالم بأسره . . رباه . . أشعر بوعكة (يصرخ) أيها الخادم !

٨

(بوبوفا وسميرنوف)

بوبوفا : (تدخل ذابلة العينين) سيدى الكريم . . تعودتُ في وحدتى الطويلة الابتعاد عن الأصوات البشرية ، كما أننى لا أطيق الصراخ بتاتاً . فرجائى إليك ألا تقلق راحتى

سميرنوف : لن أخرج من هذا البيت قبل أن تدفعى لى الدراهم

بوبوفا : أفهمتك بلغة روسية أننى لا أحمل المبلغ الذى تطلبه الآن فانتظر إلى بعد غد .

سميرنوف : ولى الشرف أن أفهمك بلغة روسية أيضاً أن المبلغ الذى أطلبه يلزمنى اليوم وليس بعد غد . فإذا لم تدفعى لى دراهمى اليوم ، فسأجد نفسى غداً مضطراً إلى الانتحار .

بوبوفا : حقاً إنك غريب الأطوار . قلت لك إننى لا أملك المبلغ الذى تطلبه الآن فما عساى أن أفعل ؟

سميرنوف : ففى حالة كهذه أرى نفسى مضطراً للبقاء هنا . . سأظل فى بيتك إلى أن أقبض المبلغ . سأجلس هكذا حتى تدفعى . . (يقفز فجأة) إننى أسألك سؤالاً صريحاً : أينبغى

أن أدفع الفوائد أم لا ؟ . . أو تظنين أنى أمازحك ؟

بوبوفا : سيدى الكريم ، رجائى إليك ألا تصرخ هنا ، فالمكان الذى أنت فيه ليس اصطبلاً . .

سميرنوف : إننى لا أسألك عن الاصطبلات ، و إنما أسالك : أأدفع الفائدة المستحقة علىّ غداً أم لا ؟ .

بوبوفا : إنك لا تحسن السلوك فى الأوساط النسائية . .

سميرنوف : إنك لعلى خطأ عظيم .. إننى أتقن السلوك بين النساء كل الإتقان .

بوبوفا : كلا إنك تجهل ذلك تماماً ، إنك رجل غير مهذب، فظ ، فالناس المؤدبون لا يخاطبون النساء على هذا الوجه الذى تخاطبنى به .

سميرنوف : حقاً إنها لقضية عجيبة . كيف تأمرين أن أخاطبك ؟ أأخاطبك بالفرنسية أم بغيرها من اللغات ؟ (يتحدث إليها بغضب ، ويلثغ فى اللفظ) مدام ، جى ڤو پرى . . ، (Je vous pris) إننى جد سعيد لأنك لا تدفعين لى الدراهم آه . . پاردون لأننى أزعجتك . . الطقس اليوم جميل جداً .

ولباس الحداد الذى تلبسينه يليق بك ، وينسجم على قدك
(يسير متبختراً) .

بوبوفا : يا للحماقة والخشونة .

سميرنوف : (يغيظها) يا للحماقة والخشونة . . إننى أسىء السلوك فى أوساط النساء . . يا مولاتى لقد شاهدت فى حياتى نساء أكثر مما شاهدت أنت من طير الزرازير . . تبارزت ثلاث مرات من أجل النساء ، وهجرت اثنتى عشرة امرأة ، وتسع هجرننى . . كانت لى أيام ماجنت فيها ، وغازلت ، وصارحت بحبى ، ونمقت الكلمات المعسولة ، وتبخترت فى سيرى . أجل كانت لى أيام أحببت فيها ، وتعذبت ، وذبت . . وتجمدت ، وتأوهت فى ضوء القمر وبكيت . . تذوقت الحب العنيف فى جميع أشكاله وألوانه ، وكنت أصرخ كما تصرخ العقاعق !.. كنت عاطفيًا ، رقيق الحواس إلى أقصى حد ، وأما الآن ، فلن أتأثر بالنساء كفانى ما رأيته منهن ، وثقى بأننى لن أدفع الآن درهماً واحداً فى سبيل العيون السود والنظرات المغرية ، والشفاه الحمر ، والنقر على الوجنات ، والأقمار ، والهمسات ، والأنفاس المتقطعة ! . . إننى لا أعنى

بذلك حضرتك بالذات، و إنما عنيت كل النساء .. فصغيراتهن وكبيراتهن مداهنات منافقات نمامات حقودات كاذبات حتى عظام الدماغ ! . . مهمومات حقيرات حائرات عديمات الفهم والمنطق . . يبدون فى الظاهر وكأنهن مخلوقات شعرية جزء من الأثير . . شبه آلهة .. و إذا ما تطلعت إلى نفوسهن لا ترى فيهن إلا تماسيح عادية . . (يتشبث بكرسيه فيطقطق ويتكسر) غير أن المثير فى هذه التماسيح تصورها أن الحس الدقيق هو من مميزاتها الخاصة . . فالمرأة لا تحب أحداً سوى كلبها الصغير، وهى إن أظهرت للرجل حباً ففى الانتحاب والتنخع فقط . و إذا ما ضحى الرجل فى سبيل حب امرأة وتألم ، وبادلته هذا الحب فإنما بحركات الدلال محاولة القبض على أنفه بشدة ؛ فمن سوء طالعك يا مولاتى أن تكونى امرأة ! . . و إنك ولا ريب اختبرت الطبيعة النسوية فى ذاتك . . بالله ، ألا أخبرتنى صراحة : هل رأيت فى حياتك امرأة أمينة مخلصة ثابتة الوفاء؟لم ترى طبعاً . لأن الأمينات الثابتات هن العجائز الكسيحات فقط . ويسهل على الإنسان أن يرى هرة بقرنين من أن يرى امرأة أمينة .

بوبوفا : المعذرة ياسيدى . . فمن هو الأمين الثابت فى الحب؟
أهو الرجل ؟

سميرنوف : أجل ! . . هو الرجل . .

بوبوفا : (تضحك بحقد) الرجل أمين ثابت فى حبه ! . .
يا له من نبأ جديد ! . . (بحدة) كيف تجيز لنفسك القول
بأن الرجال أمناء ثابتون ! إن أحسن رجل عرفته فى حياتى
هو المرحوم زوجى . . أحببته بكل جوانحى ، حب فتاة
صبية مفكرة ، قدمت له صباى وسعادتى وحياتى وملكى . .
كنت أتنفس به . . وأعبده كما يعبد الوثنى صنمه . . ومع
ذلك كله كان زوجى — هذا الذى اعتبرته أحسن رجل بين
الرجال — يخوننى كلما سنحت له الفرص . . . ولقد عثرت
فى درج مكتبه بعد وفاته على صندوق ملىء بالرسائل الغرامية.
وكان فى حياته — و يا لفظاعة الذكرى ! — يتركنى وحيدة أسابيع
كاملة . ولا يتورع عن التودد إلى النساء أمامى ، فيخوننى،
و يبذر نقودى ، و يستخف بشعورى . . و بالرغم من مسلكه
الشائن هذا ، كنت أكن له الحب والإخلاص . . والأنكى
من ذلك أننى لا أزال ثابتة على حبى له حتى بعد مماته . .

لقد حكمت على نفسي أن أدفن بين جدران هذا البيت إلى الأبد ، وأن لا أنزع عني ثوب الحداد هذا حتى أنزل إلى القبر وراءه . .

سميرنوف : (يضحك بسخرية) حداد ! . . لا أفهم ... من تظنيني . . كما أنني لا أدري السبب الذي يحملك على أن ترتدي السواد ، وتقبري نفسك بين أربعة جدران في بيت . . حقًّا إن حياتك هذه لشعرية محاطة بهالة من الأسرار الخفية. إنك ولا ريب تودين أن يمر ببيتك أحد تلامذة المدرسة الحربية ، أو شاب شويعر . . فيتطلع إلى نافذتك ويقول : « هنا تقطن تمارا . . . ذات الأسرار . . التي دفنت نفسها بين جدران منزلها في سبيل حبها لزوجها » أجل . . نحن أدرى بهذه الألاعيب . . أيتها السيدة . .

بوبوفا : (ثائرة) ماذا ؟ . أتجرؤ على أن توجه إليّ مثل هذا الـكلام ؟ . . .

سميرنوف : لقد دفنت نفسك حيّة، ولـكنك لم تنسي أن تضعي المساحيق على وجهك ! . .

بوبوفا : كيف تتجاسر وتخاطبني على هذا النحو ؟

سميرنوف : رجائى إليك ألا تصرخى فى وجهى ، واسمحى لى أن أنعت الأشياء بأسمائها . إننى لست وكيلك ، كما أننى لست امرأة . . فمن عادتى أن أعرب عن رأيي فى صراحة . آمل ألا أسمع صراخك ثانية .

بوبوفا : إنك أنت الذى تصرخ فى بيتى .. ألا تتفضل وتتركنى فى هدوئى !

سميرنوف : ادفعى لى نقودى ومن ثَمَّ أغادر هذا المكان . .

بوبوفا : لن أدفع لك شيئًا .

سميرنوف : بل تدفعين .

بوبوفا : ونكاية فيك . . لن أدفع لك كوبيكا واحداً . . هلا تدعنى وشأنى ؟

سميرنوف : ثق بأنه لا يسرنى بتاتاً أن أكون خطيبك أو زوجك . فأحسنى المخاطبة ولا تتحرشى بى (يجلس) إننى أمقت المشاكل . .

بوبوفا : (بغضب شديد) أتجلس أيضاً . .

سميرنوف : أجل .

بوبوفا : تفضل واخرج

سميرنوف : ادفعى لى مالى (يتنحى جانباً) إننى حانق اليوم .
إننى لجد حانق .

وبوفا : ألا تفهم؟ إننى لا أود التحدث إلى الوقحين !
تفضل وانصرف . .

(وقفة)

بوبوفا : ألا تخرج ؟

سميرنوف : كلا . . .

بوبوفا : كلا ؟

سميرنوف : كلا . . .

بوبوفا : لا بأس (ترن الجرس)

٩

(بوبوفا . . سميرنوف . . لوقا)

بوبوفا : لوقا . . أخرج هذا السيد ! . .

لوقا : (يتقدم من سميرنوف) أيها السيد . . لقد صدر
الأمر بخروجك حالاً من البيت . فليس لديك ما تفعله هنا .

سميرنوف : (يقفز) اصمت . . وإلا صنعت منك «سلطة» !

لوقا : (يرتعد رعباً) رباه . . يا أصحاب الكرامات . .

(يقبع على الكرسى) يكاد يغمى على . . شيء منكر . .

بوبوفا : أين داشا ؟ . . داشا ! . . (تصرخ) داشا ! . . بيلاغيا ! . . داشا ! . . (ترن الجرس)

لوقا : ذهب كل من فى البيت إلى الحرج ليجمعوا التوت البرى . . آه يكاد يغمى على : : ايتونى بالماء . . .

بوبوفا : تفضل وانصرف

سميرنوف : ألا يحسن بك أن تخاطبينى بلطف ؟

بوبوفا : (تجمع قبضتيها وتضرب الأرض بقدميها) أنت فلاح . . دب فظ . . وحش هائل . .

سميرنوف : ماذا ؟ . . ماذا تقولين ؟

بوبوفا : قلت إنك دب . . ووحش مخيف . .

سميرنوف : (يتقدم نحوها) بأى حق تهيننى ؟

بوبوفا : أجل أهينك . . أو تظن أننى أخشاك ؟

سميرنوف : أو تظنين أن كونك مخلوقة شعرية يخولك الحق بأن تهنينى دون أن يلحقك عقاب . إننى أدعوك إلى المبارزة

لوقا : رباه . . يا أصحاب الكرامات . .

سميرنوف : إلى المبارزة بالمسدسات ! . .

بوبوفا : إننى لا أخشاك ، رغم اعتقادك بأن لك حلق ثور ، وقبضتين قويتين ، هه . . حقاً إنك لدب فظ ! . .

سميرنوف : إلى المبارزة . . إننى لا أسمح لأحد أن يحقرنى ، ولا يهمنى كونك مخلوقة ضعيفة .

بوبوفا : (تحاول الصراخ) دب . . دب . . دب .

سميرنوف : لقد آن الأوان لـكى نضع حداً لذلك الوهم الشائع القائل بأن الرجال وحدهم هم المجبرون على دفع ثمن الإهانات فما دامت المرأة تطالب بالمساواة فلتكن . . يا للشيطان . . هيَّا إلى المبارزة .

بوبوفا : أتريد المبارزة بإطلاق النار ؟

سميرنوف : أجل . . وفى هذه اللحظة .

بوبوفا : انتظرنى دقيقة واحدة . سأذهب وآتى بالمسدسات التى خلفها المرحوم زوجى . (تروح وتغدو على عجل) أية مسرة أجدها فى إفراغ رصاصة فى رأسك الدُّبِّى . . فيختطفك إبليس (تخرج)

سميرنوف : سأطلق النار عليها كما أطلقها على عصفور . إننى لست طفلاً ، ولا خنوصاً ولا أعترف بوجود مخلوقات ضعيفة .

لوقا : أبتاه . . وارحمتاه . . (يجثم على ركبتيه) كن طيباً . .
وأشفق على هذا الشيخ . . تفضل واخرج من هذا البيت .
لقد كدت أهلك من الرعب ، وتريد المبارزة أيضاً ؟

سميرنوف : (لا يصغى إلى توسلاته) المبارزة بالمسدسات هى
المساواة فى الحقوق . وهذا هو أسُّ الدعوة إلى تحرير المرأة ،
فالجنسان فى هذه الحالة يكونان متساويين . سأطلق النار
عليها مبدئياً !.. (متهكماً).. «فليختطفك إبليس .. وسأفرغ
رصاصة فى رأسك الدُّبِّى » . . أية امرأة هذه ؟ لقد تحمست
واتقدت عيناها حنقاً ، وقبلت الدعوة بلا تردد . . الواقع
أننى لأول مرة فى حياتى أشاهد امرأة فى مثل هذه الصلابة
والعناد .

لوقا : أبتاه . . تفضل واخرج . . وسأصلى لك طيلة حياتى !..

سميرنوف : ما هذه المرأة ؟ حقاً إنها لامرأة بكل معنى الكلمة ،
فهى ليست من النوع المائع المتصنع ، وإنما هى شعلة بارود،
شهاب ، وقتلها خسارة !..

لوقا : (يبكى) أبتاه . . رجائى إليك أن تخرج . .

سميرنوف : إننى معجب بها... أجل ... إنها لتعجبنى بالرغم من

النُقَرِ المنثورة على وجنتيها ... وأجد نفسى على تمام الاستعداد لأن أسامحها فى الدين وأغفر لها إهاناتها، حقاً إنها امرأة عجيبة.

١٠

(سميرنوف ، لوقا ، بوبوفا)

بوبوفا: (تدخل وهى تحمل المسدسات) إليك المسدسات ! تفضل أرنى كيف تستعمل قبل أن نشرع فى المبارزة . . إننى لم أقبض على مسدس طيلة حياتى

لوقا : أنقذنا يا رب وارحمنا . علىّ أن أهرع فى طلب النجدة من البستانى والسائس وغيرهما . . رباه . . من أين جاءنا هذا البلاء ؟ (يخرج)

سميرنوف : (يقلب المسدسات) انظرى . . هناك عدة أنواع للمسدسات منها ما هو خاص بالمبارزة ، و يعرف باسم مورتيميرا ، أما هذه التى فى حوزتك فهى من طراز سميث وفيسون ، وتستعمل عادة للضرب المُرَكَّز . حقاً إنها لمسدسات جيدة ، يباع الواحد منها اليوم بتسعين روبلاً . أما طريقة استعمالها فتقبضين على المسدس هكذا (يلتفت جانباً) رباه ما هذه النظرات . . امرأة شعلة ! . .

بوبوفا : أأقبض على المسدس على هذا الشكل ؟

سميرنوف : أجل هكذا . . تصوبين الفوهة نحو الهدف . . . وتجعلين رأسك يميل إلى الخلف قليلا ، أجل هكذا . . . ثم تضغطين على هذا الزناد وينتهى الأمر . والأهم من ذلك كله ألا تحتدمى ، وأطلق النار بأعصاب هادئة ، واحذرى أن تضطرب يدك .

بوبوفا : شكراً . . لكننى لا أستحسن المبارزة فى الغرفة ، فلنخرج إلى الحديقة . .

سميرنوف : هيا . . لكننى أحيطك علماً بأننى سأطلق النار فى الهواء !

بوبوفا : وما معنى ذلك ؟

سميرنوف : وأنت ما يعنيك مما أفعل ؟ هكذا أريد ! . .

بوبوفا : أجبنت أيها الرعديد ؟ . . هه . آ . . آ . . آ . . . كلا لن يكون لك ما تريد . تفضل واتبعنى . وأقسم لك بكل عزيز بأنه لن يهدأ لى بال حتى أضرب بالرصاص جبهتك البغيضة هذه . . أجبنت أيها الرعديد ؟ قل لماذا عدلت عن المبارزة ؟

سميرنوف : لأننى أعجبت بك !

بوبوفا : (تضحك بغيظ) لقد أعجبتك ! . . إنه يجرؤ ويقول

إننى أعجبته (تشير إلى الباب) أُخرج ! . .

سميرنوف : (يضع المسدس على المائدة دون أن يتفوه بكلمة . ثم يأخذ قبّعته . ويسير نحو الباب ويقف ، فيتبادلان النظر لحظة ثم يخاطبها) : ألا تزالين ساخطة علىّ ؟ إننى أيضاً مهتاج حانق ولكن هل لك أن تفهمينى ؟ . فالمسألة هى كما ترين وبكلمة موجزة ، هى .(يصرخ) وما ذنبى إذا ما أُعجبت بك ؟ . . إننى معجب بك أتفهمين ؟ إنى على وشك الوقوع فى هواك .

بوبوفا : أغرب عن وجهى ، وإلا أطلقت عليك النار .

سميرنوف : أطلقى النار علىّ ، فإنك لا تدركين السعادة التى أجدها فى الموت مشيعاً بهاتين العينين البرّاقتين العجيبتين . وأن أُقتل بمسدس تقبض عليه هذه اليد المخملية . . لقد جُننت ... ففكرى فى الأمر . . وأصدرى حكمك إننى رجل شريف مؤدب ، وأملك دخلاً سنويا يقدر بعشرة آلاف روبل . . وإننى صياد ماهر أُصيب قطعة النقود فى الهواء بطلقة واحدة . . عندى خيول ممتازة . . أفلا تريدين أن تكونى زوجة لى ؟

بوبوفا : (خانقة تهز المسدس) هيا إلى المبارزة ...أسرع ! . .

سميرنوف : لا أفقه شيئاً .. جُننت . . أيها الخادم ايتنى بقدح من الماء .

بوبوفا : (تصرخ) هيَّا إلى المبارزة . .

سميرنوف : جُننت . . أحببت .. مثل الولد الصغير . . بل مثل الأحمق . . (يمسكها من يدها وهى تصرخ من شدة الألم) أُحبك . . (يجثو على ركبتيه) أحبك أكثر من جميع اللائى أحببتهن فى حياتى . . هجرت اثنتى عشرة امرأة ، وتسع هجرننى ، لكننى لم أحب أية واحدة منهن بقدر حبى لك . . ها أنا جاثم أمامك مثل الأحمق . . أطلب يدك ، فوا خجلاه ! . . خمس سنوات انقضت لم أذق خلالها طعم الحب ، فقد آليت على نفسى ألاَّ أُحب .. وإذا بسهم الحب يصيبنى فى قلبى على حين غِرَّة ... إننى أطلب يدك . أفلا تجيبيننى بنعم أو بلا ؟ أتأبين الإجابة ؟ لا بأس ... (يقف ويتجه بسرعة نحو الباب)

بوبوفا : قف !

سميرنوف : (يقف) نعم ! ...

بوبوفا : لا شيء ... اذهب . ولكن قف !... كلا ... اخرج اخرج ! ... إننى أمقتك . ولكن كلا لا تخرج ! ... إننى حانقة ... إننى ساخطة ... (تلقى المسدس على الطاولة) ... لقد ورمت أصابعى من هذه الآلة الكريهة ... (تمزق منديلها من الحنق) ألا تزال واقفاً ؟ انصرف ! ...

سميرنوف : الوداع ؟ ...

بوبوفا : أجل اخرج (تصرخ) إلى أين أنت ذاهب؟ قف؟.. اذهب ؟ ... رباه إننى حانقة ساخطة ... لا تقترب منى . لا تقترب ...

سميرنوف : (يقترب منها) يا لعجبى من نفسى لقد أحببتك كما يحب تلميذ المدرسة الإعدادية . . جثمت أمامك على ركبتى وشعرت بموجة من الصقيع تمزق جسدى . . (بخشونة) أحبك ! . . إننى كنت فى غنى عن هذا الحب ولم يخطر لى ببال قط . . وكيف أفكر فى الحب ، وعلىّ غداً أن أدفع الفوائد للبنك الزراعى . . وموسم الحصاد على الأبواب ، وإذ بك تعترضين سبيلى ، (يطوقها من خصرها) إننى لن أغتفر لك ذلك أبداً .

بوبوفا . ابتعد عنى . . ارفع يدك عن خصرى . . . إننى أمقتك . . هيا إلى المبارزة ! . .

(تقبيل متواصل)

١١

(يدخل لوقا عليهما وهو يحمل فأساً . . وبصحبته البستانى يحمل مِسحلة . . والسائس يحمل شوكة حصاد ، وعددٌ من العمال يحملون قطعاً من الخشب)

لوقا : يراهما متعانقين . رباه . . يا أصحاب الكرامات ! . .

(وقفة)

بوبوفا (منخفضة العين) لوقا . . قل لسائس الإسطبل أن لا يقدم اليوم شيئاً من الشوفان للحصان « توبى » ! . .

(يسدل الستار)

مفجوع رغم أنفه

من حياة الاصطياف فى الريف

أشخاص الرواية

إيفان إيفانوفيتش تولكاتشوف — رب عائلة .

ألكسى ألكسيفتش موراشكين — صديقه .

تجرى حوادث الرواية فى بطرسبورغ فى بيت موراشكين

(مكتب موراشكين حسن الفرش ، يجلس موراشكين وراء مكتبه ، فيدخل عليه تولكاتشوف وهو يحمل بين يديه زجاجة مصباح ، ودراجة أطفال ، وثلاث علب تحتوى على قبعات ، ورزمة كبيرة تتضمن ثوباً نسائياً ، وكيساً فيه زجاجات خمر ، ورزمة صغيرة أخرى ، يتطلع بعينين تائهتين ، ويرتمى على المقعد متهالكا) .

موراشكين : مرحى إيڤان إيفانوڤيتش . . . إننى جد مغتبط برؤياك . . من أين أنت آت !

تولكاتشوف : (يتنفس بصعوبة) آه يا عزيزى لى رجاء لديك أتوسل إليك ، أقرضنى مسدسك حتى الغد ! . . كن صديقاً صدوقاً وأقرضنى إياه . .

موراشكين : وما حاجتك بالمسدس ؟

تولكاتشوف : إننى فى مسيس الحاجة إليه . . أبتاه . . أسعفنى بقليل من الماء ، أسرع بالماء ، أجل لا بد لى من الحصول

على المسدس ، لأننى سأسافر هذه الليلة إلى المصيف ، وأخترق الأحراج المخيفة بمفردى ، وأرى أن أحمل مسدساً حذر الطوارىء . . أقرضنى إياه . . أتوسل إليك . .

موراشكين : كفاك هذراً يا إيڤان إيڤانوفيتش . ما هذا الخور؟ أنت رب عائلة ، ومستشار دولة ، فاخجل من نفسك . .

تولكاتشوف : وأى رب عائلة أنا ؟ إننى شهيد . . بل بهيمة حقيرة إننى زنجى ، عبد منحط ، لا أزال أُمنى النفس فى هذه الحياة ، ولا أفعل شيئاً لينقلنى إلى دار البقاء . . . إننى خرقة بالية ، سخيف أحمق ، فما معنى عيشى هذا ؟ ألا تقل لى لِمَ أنا عائش ؟ وما الذى يدعوننى لتحمل كل هذه الآلام المعنوية والجسدية . إنه ليرضينى أن أكون شهيد فكرة ما ، ولكننى لن أقبل ـ بأية صورة من الصور ـ أن أكون شهيد أثواب نسائية ، وزجاج مصابيح ! . كلا لن أكون ذلك . كفانى . .

موراشكين : لا تصرخ يسمعك الجيران . .

تولكاتشوف : دعهم يسمعون . . فالأمر عندى على حدٍ سواء . . . فإذا لم تقرضنى المسدس فغيرك يقرضنى إياه . لقد تقرر الأمر ،

ولن أبقى فى عداد الأحياء بعد اليوم

موراشكين : قِفْ ، لقد قطعت عروقى ، تكلم بهدوء ، إننى لا زلت أجهل الأمر الذى يؤلمك فى حياتك .

تولكاتشوف : أتسألنى الأمر الذى يؤلمنى فى حياتى ؟ تفضل واسمع قصتى ، سأعترف لك بحقيقة الأمر ، ولعل فى اعترافى هذا ما يخفف الحمل عن نفسى ، فلنجلس .. أصغ ، آه .. أماه ، دعنى أتنفس قليلا ... خذ على سبيل المثل ما حدث لى هذا اليوم : شرعت فى عملى المضنى فى الديوان من الساعة العاشرة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر ، وكان الجو حاراً خانقاً ، والذباب يشنها حرباً لا هوادة فيها ، وكان الوضع غيرطبيعى فى الدائرة ، فالسكرتير فى إجازته ، وخرابوف راح يتروح ، وصغار الموظفين لا يفكرون إلا فى الاصطياف الريفى ، وفى الحب ، والحفلات المسرحية ، والأنكى من ذلك كله أن السكرتير بالنيابة مصاب بطرش فى أذنه اليسرى ، وعاشق.. وهكذا ترى كل شىء هاجماً مشلولا فى الدائرة ، فى حين أن طلاب الحاجات يهرعون فى خَبل من مكان إلى آخر دون طائل ، يسرعون ويتسابقون ، يهددون ويحتجون ،

فيحدثون بلبلة وتشويشاً عظيمين . . وكلهم بين مستفهم وصاحب مصلحة . وما أكاد أفرغ من هذا العمل الممل الذى يجرى على وتيرة واحدة ، وَمَثَلهُ مَثَلُ الإسفنجة تمتص الماء وتلفظه . . أجل ما أكاد أغادر الدائرة حتى تستولى على رغبة ملحة فى أن أتناول الغداء ، وأستلقى على الفراش ، أطلب النوم الهنىء . ولكن أنّى لى ذلك ؟ أتذكر ساعتئذ أننى رب عائلة مصطافة وما أنا إلا خلعها ، بل عبدها ومسحتها . . أجل أيها العزيز موراشكين لقد انتشرت فى مصيفنا عادة جديدة لطيفة ، ومفادها أن المصطافات يشعرن بأن لهن من السلطة ما يخولهن الحق بأن يطلبن من الرجل المصطاف الذاهب إلى المدينة أن يجلب لهن معه كل ما هن فى حاجة إليه من ملبس ومأكل ولوازم بيتية أخرى ، وفى صبيحة هذا اليوم طلبت منى زوجتى أن أعرّج على الخياطة وأن أوبخها على إخراجها كمى الثوب عريضين ، وجعلها كتفه ضيقاً ، وسألتنى أن أستبدل حذاء ابنتنا سونتشكه بغيره ، وأن أشترى لكنتى شريطاً من الحرير ، وثلاث أذرع من القماش . . حلمك أيها الصديق الصدوق ، سأقرأ لك القائمة

مفصلا (يخرج من جيبه ورقة ويقرأ فيها) : «زجاجة مصباح ، أوقية طحال ، مسامير وبراغى بخمسة كوبيكات ، زيت خروع لميشا ، عشر أواق سكر ناعم ، وبودرة بعشرة كوبيكات ، وعشرون زجاجة بيرة ، ثم علىّ أن أعرج على البيت وأن أجلب منه الطاس المعدنى ، وعلبة السكر وزجاجة حامض الكربونيك ، وعلبة المسحوق الفارسى لمكافحة البق ، وزجاجة روح الخل ، وبالطوميشا الخريفى ، وكورسيه المدموازيل شانسو» . هذه طلبات الزوجة والعائلة ، أما طلبات المعارف والجيران — ليت إبليس يختطفهم — فهى أن اشترى دراجة لأسرة فلاسين بمناسبة عيد ميلاد تولوديا ، وأن أدعو القابلة لتزور زوجة الرئيس العسكرى فيخرين ، وأن أسلم خمس رسائل لبعض الأسر فى المدينة . .

وعلى ذلك يا أبتاه ، ترانى فى الفترة التى تتخلل انتهاء عملى فى المكتب ، وقيام القطر أركض من مكان لآخر وأنا ألعن الحياة . . فمن الحانوت إلى الصيدلية ، ومن الصيدلية إلى الخياطة ، ومن هذه إلى اللحام ، ومن هذا أعود ثانية إلى الصيدلية . . ويحدث أحياناً أن تعثر قدمى فى مكان، وأفقد

نقودى فى مكان آخر ، وأنسى أن أدفع ثمن البضاعة فى مكان ثالث ، فيعدو ورائى صاحب البضاعة مثيراً ضجة فاضحة ، وأدوس على رداء سيدة فى مكان رابع . . أف . . إن هذه التمرينات المتوالية تجمد الدم فى عروق الإنسان ، وتشل أعصابه وتجعله يحس طيلة ليله أن هناك من يكسر عظامه ، وأن تماسيح تراوده فى أحلامه .

حسناً . لقد نفذت الطلبات والتوصيات ، وابتعت كل شىء فكيف لى بعدئذ أن أؤلف بين هذه الموسيقى المختلفة الألحان؟ كيف أضع مثلا العلبة المعدنية الثقيلة مع زجاجة المصباح ؟ أو حامض الكربونيك مع الشاى ؟ أو زجاجات البيرة مع الدراجة ؟ إنها أشغال شاقة فرعونية . . ومن الواجب إنعام الفكر فيها ، إنها معضلة شديدة التعقيد . فكيفما حاولت تدبر الأمر ، والاحتيال عليه ، فلا مفر من أن يتهشم شىء مما أحمله ، أو ينساب من بين يدى إلى الأرض . . ثم أدخل عربة القطار فأرى فيه ازدحاماً عظيماً فأضطر إلى الوقوف مستنداً بعض الرزم إلى ذقنى ، ويتحرك القطار فيتماوج المسافرون ويميل بعضهم على بعض ، وتتطاير حوائجى هنا وهناك . .

ويرتفع صراخ المسافرين من كل الجهات قائلين : لقد شغلت بحوائجك أماكن غيرك .. ارفعها وإلا استدعينا المفتش وسألناه أن ينزلك من القطار فى أقرب محطة .. فأداريهم ، وأصبر على مضض ، وأتسمر فى مكانى مثل الحمار العنيد ! . .

واسمع الآن يا صديقى الصدوق تتمة قصتى : وأخيراً أصل إلى المصيف وأحس بحاجة شديدة إلى الأكل ورغبة فى شرب كأس من النبيذ . . غير أن سوء الطالع يلازمنى فى المصيف أيضاً ، فلا أكاد أبلغ البيت وأفرغ الحمل ، وألعق القليل من الحساء ، حتى تدخل علىّ زوجتى وتقول لى : هيا إلى المسرح ، أو إلى حلقة الرقص ! . . وهل بوسعى أن أحتج ؟ فإننى زوج . . وكلمة « زوج » تعنى بلغة أهل الاصطياف « بهيمة » معدة للركوب وحمل الأثقال ، لا تجد من يشفق عليها حتى ولا جمعية الرفق بالحيوان ! . .

فأسير مع زوجتى رهين أمرها ، فنشاهد رواية «فضيحة فى أسرة فاضلة » ، أو رواية « مرتيو » ، فأصفق بإشارة منها ، ثم أعطس وأتثاءب . . هذا إذا ذهبنا إلى المسرح . أما إذا ذهبنا إلى حلقة الرقص فعلىّ هناك أن أبحث عن فرسان

يراقصون زوجتى ! و إذ نعود إلى البيت من المسرح أو حلقة الرقص بعد منتصف الليل ، أشعر فى قرارة نفسى بأننى جيفة لا تصلح إلا لتلقى إلى السباع والطيور الجارحة . وعند ما أبلغ ما أصبو إليه وهو الفراش أستلقى عليه ، فتغمرنى الغبطة وأغمض عينى وأنام ، ويتراءى لى أن كل شىء يحيط بى عذب لطيف شعرى ، فلا صوت أطفال يقلق راحتى ولا زوجة تزعجنى . كل شىء هادئ دافئ . . وعلى حين غرة أسمع (د زز . . زز . .) يا لله ! البعوض «يئب» . أجل، البعوض الشقى الكافر اللعين «يهدد بقبضتيه» ، البعوض هو الإعدام الفرعونى ! . . هو محاكم التفتيش الإسبانية ! دززز . . البعوض يدندن بصوت شاك محزن ، كما لو أنه يقدم لك استرحاماً ، وفجأة إذا بهذا اللئيم يلسعك فتقضى الساعات الطوال وأنت تحك جسمك .

ثم تنفث الدخان عليه ، وتهشه ، وتخفى رأسك تحت اللحاف دون جدوى ، وفى النهاية تبصق وتستسلم للعذاب وتقول . « تغذوا أيها المناكيد ! . . » ولا تكاد تعتاد لسع البعوض حتى يتناولك نوع آخر من المنغصات ألا وهو مدرس الغناء . .

هنالك طبقة من المغنين يناموننهاراً و يسرحون ليلا ، فيجوبون بيوت محبي الغناء و يحيون فيها الحفلات أو يلقنون الدروس . . وزوجتى مغرمة بالغناء ، و يأتيها أستاذها بين ليلة وأخرى ، فيرفع صوته ، وتتبعه هى فيخطئها ، فتعيد الصراخ ، إنه لعذاب أشد من لسع البعوض . . و يل لذاك المغنى حين ينشد: « لا تقولى إن عهد الصبا قد اندثر فهأنذا أقف أمامك ثانية مأخوذاً » يا له من مغن وغد . . . و يا لها من تلميذة أنانية .. يواصلان الغناء فينتزعان منى الروح ، ولا أجد وسيلة لتهدئة نفسى إلا أن أتسلى بالنقر على صدغى إلى أن يكف المغنى على الغناء فى تمام الساعة الرابعة صباحا ، آه .. إلى بالماء ياصديقى الصدوق . . و بعد ذلك أنام ساعتين فقط فأنهض فى الساعة السادسة صباحاً ، وأسرع إلى المحطة مجتازاً الطريق الموحلة ، والضباب يكتنفنى من كل جانب ، والصقيع يسرى فى جسمى ، وأركب القطار وأبلغ المدينة ، ثم تبتدئ الأغنية من أولها !.. إنها لحياة منحطة ساقطة ، لا أريدها لألد أعدائى ، إننى مريض ، قصير النفس ، مصاب بحرقة فى صدرى ، ومعدتى لاتهضم الأكل ، وعلى عينى غشاوة ، وأحس

دائماً بأننى أخشى شيئاً أجهله ! . . ثق بأننى جننت .
(يتطلع هنا وهناك) أرجو أن يظل هذا الخبر سراً فيما بيننا وسأذهب الآن إلى الطبيب تشتشيتو أو مرجيفسكى ليفحصنى. آه يا صديق ! لا يسعك أن تتصور حالتى فى أويقات ضيق الصدر وتوتر الأعصاب، فإذا ما لسعنى البعوض أو غنى المغنى فى بيتى بعد منتصف الليل ، تظلم الدنيا فى ناظرى ، وأثب فجأة ، وأركض فى جميع أرجاء البيت كمن اشتعلت فى ثيابه النيران ، وأصرخ قائلا : « أتعطش للدماء . . للدماء . . » وتمتلكنى فى هذه الآونة الرغبة فى أن أطعن أحداً بخنجر ، أو أن أهوى بكرسى على رأس أحدهم . . هذا هو ما أوصلتنى إليه حياة الاصطياف . . ألا يوجد بين الناس من يمنحنى شفقته أو عطفه لا ضحكه وسخريته ؟ . .
إننى مخلوق حى ، أود العيش مثل باقى الناس . وقصتى هذه ليست أنشودة هزلية و إنما هى فجيعة محكمة الحلقات . أصغ إلى الآن : إن أبيت أن تعطينى مسدسك فامنحنى عطفك على الأقل ! . .

موراشكين : إننى عليك لعاطف ! ...

ولكاتشوف : هه ... لقد بينت لى عطفك هذا . . الوداع ، إننى ذاهب فى طلب السمك ، والنقانق ، و بودرة الأسنان، وغير ذلك الشيء الكثير . . ثم . . إلى المحطة . .

موراشكين : أين يقع منزلك في مصيفك ؟

تولكاتشوف : بالقرب من نهير الرمة . .

موراشكين : (مغتبطاً) أحقاً تقول ؟ ألا تعرف هناك أين تسكن المصطافة السيدة أولغا بافلوفنا فينبرغ ؟ .

تولكاتشوف : كيف لا أعرف ؟ إنها جارتنا ومن معارفنا .

موراشكين : أحقاً ما تقول ؟ يا لها من مصادفة حسنة . :

تولكاتشوف : عسى أن يكون الأمر خيراً . .

موراشكين : أى عزيزى وحبيبى . ألا تود أن تقدم لصديقك خدمة صغيرة ، كن عند حسن ظنى بك. وأعطنى كلمة شرف أنك ستنفذ لى رجائى .

تولكاتشوف : خيراً ! ماذا هناك ؟ . .

موراشكين : أتوسل إليك أيها الصديق الصدوق أن تبلغ السيدة أولغا بافلوفنا تحياتى ، وأن تخبرها أننى حى معافى ، وأن تقبل يدها نيابة عنى ، ثم أرجوك أن تأخذ لها هذا الشيء

الصغير بيدك . . لقد سألتنى أن أشترى لها ماكينة خياطة تدار باليد ، فاشتريتها غير أننى محتار فى كيفية إرسالها لها ، خذها معك ياعزيزى . . . أرجوك ، ثم أتوسل إليك بهذه المناسبة أن تحمل لها أيضاً هدية منى ، وهى عبارة عن قفص فيه شحرور ، واحذر أن ينكسر باب القفص و يفلت الطير ، ما لك تحدق فىّ هكذا ؟

تولكاتشوف : ماكينة خياطة تدار باليد ؟ وقفص فيه شحرور ؟

موراشكين : إيڤان إيفانتش ماذا دهاك ؟ وما الداعى لقتمان وجهك؟

تولكاتشوف : (يخبط الأرض بقدميه) ايتنى بالماكينة ! . . أين القفص ! ؟ واجلس أنت عليهما أيضاً . . افترسنى ، قطعنى (يهدد بقبضتيه) اتعطش للدماء . . للدماء . . للدماء ! . .

موراشكين : أجننت ؟

تولكاتشوف : (يهجم عليه) أتعطش الدماء . . للدماء ! . .

موراشكين : (فى هلع) لقد جنّ (يصرخ) بتروشكا . . ماريا . . أين أنتما ؟ النجدة يا ناس . . أنقذونى ؟ . .

تولكاتشوف : (يعدو فى أثر موراشكين فى الغرفة) أتعطش الدماء . . للدماء ؟ . . (يسدل الستار)

ضرر التبغ

الممثل الوحيد — إيفان إيفانوفيتش نيوخين ، زوج امرأة تدير مدرسة للموسيقى وتشرف على بانسيون للفتيات .

نيوخين (وقد أرخى شعر خديه ، وحلق شاربيه وذقنه ، وارتدى فراكاً قديماً ، يدخل المسرح بخيلاء ، فينحنى أمام الجمهور ويعدل صديريته ويقول) : سيداتى الفاضلات . . ولدرجة ما سادتى الأفاضل ، (يمشط شعر خده) لقد طلب من زوجتى أن ألقى فى هذا الحفل محاضرة توجيهية ، فلم يسعنى إلاّ أن ألبى الطلب ! . . وإليكم المحاضرة ما دام لا بد منها ، فالأمر عندى على حدٍ سواء . . إننى لست فى الواقع أستاذاً بل وبعيد كل البعد عن مستوى العلماء ، ومهما يكن من أمر فلقد انقضت ثلاثون سنة من حياتى لم أنقطع خلالها عن العمل فى معالجة مسائل لها من الخصائص العلمية ما لها . . فكنت أنطوى على نفسى أفكر ، وأكتب أحياناً المقالات العلمية ، إنها ليست علمية دقيقة ، وإنما هى شبيهة بالعلمية . .

والشىء بالشىء يذكر ، فلقد وضعت فى الأيام الأخيرة مقالة

كبيرة عنوانها : « حول ضرر بعض الحشرات » وقد أثارت هذه المحاضرة إعجاب بناتى ، وخاصة ذلك الموضع منها الذى تناولت فيه البق وطرق مكافحته . و بعد أن ألقيت تلك المحاضرة مزقتها ولكن ثقوا أننى مهما كتبت في مكافحة البق فلا بد من استعمال المسحوق الفارسى ، ولا أخفى عليكم أن البق تسرب إلى بيانو بيتنا . . أما موضوع محاضرتى لهذا اليوم فهو الأضرار التى تلحق بالإنسانية من جراء استعمال التبغ .

إننى من المدخنين . إلا أن زوجتى أرادت أن ألقى عليكم اليوم محاضرة عن ضرر التبغ . إذن لا مفر من ذلك . .

فها كم حديث التبغ ما دام ذلك الحديث هو المطلوب ، فالأمر عندى على حد سواء وإننى لأقترح عليكم ، أيها السادة الأفاضل ، أن تعيروا محاضرتى هذه ، كيفما كانت ، ما تستحقه من اهتمام . وألفت نظركم إلى أنه إذا كان بينكم من تخيفه المحاضرات العلمية الجافة ، أو لا تعجبه بتاتاً فباستطاعته ألا يستمع إليها و ينصرف (يعدل صديرته)

وأرجو من حضرات الأطباء الحاضرين ، بصورة خاصة ، أن ينتبهوا إلى محاضرتى هذه ، إذ بوسع الكثير منهم أن يستمد

منها الشيء الوافر من المعلومات المفيدة . . فالتبغ — عدا فعاليته المضرة — يستعمل أيضاً فى الطب . وأضرب لكم مثلا على ذلك : إذا أخذنا ذبابة ووضعناها فى علبة الدخان ، فما من ريب فى أن مصيرها الموت المتسبب عن تمزيق جهازها العصبى ! . .

فالتبغ هو أولا نبات . . من عادتى سيداتى وسادتى أن أغمز بعينى اليمنى وأنا أحاضر ، فرجائى إليكم ألا تكترثوا لذلك . . إذ أننى على الجملة عصبى المزاج ، وقد أخذت عينى بالغمز منذ الثالث عشر من أيلول سنة ١٨٨٩ ، أى فى ذلك اليوم الذى وضعت فيه زوجتى ابنتنا الرابعة فارفارا . و بناتى كلهن ولدن فى الثالث عشر من أشهر السنة . . عفواً (ينظر إلى الساعة) آمل ألا أكون قد انحرفت عن الموضوع .. فالوقت ضيق . . لكن علىّ أن أقول لكم إن زوجتى تدير مدرسة للموسيقى ، وتشرف على بنسيون خاص ، فهو ليس بنسيوناً على الوجه الأكمل وإنما هو شبيه بذلك .

ولا أذيع عليكم سراً إن قلت لكم إن زوجتى تشكو دائماً من النقص فى المال ، مع أنها تملك ما يفيض عن حاجتها ، تملك أربعين أو خمسين ألفاً من الروبلات ، فى حين أننى لا أملك

كوبيكا واحداً . . آه . . ما عساى أن أقول لكم ؟. إننى أعمل في البانسيون بمثابة مدير للادارة ، فأشترى المواد الغذائية ، وأحاسب الخدم ، وأقيد النفقات ، وأخيط الدفاتر ، وأكافح البق ، وأنزه كلب زوجتى ، وأتصيد الفيران . . وقد طلبت منى زوجتى فى الليلة البارحة أن أقدم للطاهية الدقيق والزيت لتصنع الفطائر للتلميذات ، ولما أعدّت الطاهية الفطائر ، هرعت زوجتى إلى المطبخ لتعلن أن ثلاث تلميذات لا يردن أكل الفطائر لأن غُددهن متورمة . . وهكذا اتضح لنا أننا أعددنا كمية من الفطائر أكثر من المطلوب ، فما العمل ؟ . لقد طلبت زوجتى فى أول الأمر أن نحتفظ بهذه الفطائر فى السرداب ، ثم فكرت ملياً وقالت لى : « كلْ أنت هذه الفطائر أيها المغفل » ، ومن عادة زوجتى أن تدعونى وهى مضطربة النفس « بالمغفل أو الأفعى أو الشيطان » . وزوجتى دائماً مضطربة النفس . . وخلاصة القول : أخذتُ منها الفطائر وبلعتها بلعاً لشدة جوعى .

وبالأمس مثلاً حرمتنى زوجتى الغداء قائلة : « ليس من داعٍ لإطعامك أيها المغفل » ، ولكن المعذرة ، سيداتى وسادتى ، (ينظر إلى الساعة) يبدو لى أننى ثرثرت وانحرفت عن الموضوع

فلأتابع المحاضرة . . حقاً إنكم تفضلون الاستماع إلى رواية حب ، أوقطعة موسيقية ، أو أغنية عذبة (يغنى أغنية مطلعها) : « إننا لا نطرف بصرنا فى عجاج الوغى ! » ، لا أذكر اسم مؤلف هذه الأغنية . . وبالمناسبة أحيطكم علماً بأن زوجتى ألقت على عاتقى فى مدرستها الموسيقية مهام أخر بالإضافة إلى الإدارة . . . فأنا أدرس الحساب والطبيعيات والكيمياء والجغرافيا والتاريخ والآداب وغيرها . .

وتتقاضى زوجتى أجراً خاصاً على الرقص والغناء والرسم ، فى حين أننى أتولى بذاتى تدريس التلميذات تلك الدروس . . أما مدرستنا الموسيقية هذه ، فتقع فى زقاق الكلاب الخمسة ، فى البيت رقم ١٣ ، ويخيل إلىّ أن السبب فى فشلى فى حياتى هو لأننى أسكن فى بيت رقمه ١٣ ، ولأن بناتى ولدن فى اليوم الثالث عشر من أشهر السنة ، ولأن بيتى يحتوى على ١٣ نافذة ما عساى أن أقول لكم ؟ . بإمكان كل شخص منكم يريد مفاوضة زوجتى بصدد إدخال بناته فى المدرسة أن يزورها فى بيتها فى أى وقت يحلو له ، أما برنامج المدرسة ، فيباع عند البواب بثلاثين كوبيكاً (يخرج من جيبه بعض النسخ من ذلك

البرنامج) أتريدون أن نتقاسم هذه النسخ ؟ . . إن ثمن النسخة الواحدة ثلاثون كوبيكاً فمن يرغب فى الشراء ؟ . (سكون) ألا من راغب بينكم . . . لا بأس أبيعكم النسخة بعشرين كوبيكاً . سكون . حقاً إنه لشيء محزن . . . أجل إن بيتى رقمه ١٣ . . لا أفلح فى شيء . . لقد هرمت . . وسخفت . . فها أنا أقف أمامكم محاضراً ، ويبدو لكم أننى مرح ؛ والواقع أننى أود من صميم قلبى أن أصرخ بكل ما أوتيت من قوة ، أود أن أطير إلى أقصى أطراف المعمورة . . آه ، ليس هناك من أبثه شكواى وأذرف الدمع أمامه ، تقولون لى : وأين بناتك ؟ فمن هن بناتى هؤلاء ؟ إننى أحدثهن وهن يقهقهن . . ولزوجتى من البنات سبع . . كلا ، آسف أظن أنهن ست (على عجل) كلا ، هن سبع . . وكبراهن أنا وتبلغ من العمر ٢٧ سنة . . أما صغراهن فيبلغ عمرها سبع عشرة سنة .

سيداتى وسادتى (يتطلع يمنة ويسرة) إننى تعس ، لقد إنقلبت رجلا أحمق ، وتحولت إلى شيء تافه ، أتراءى لكم كما لو كنت أسعد الآباء . . ولكن هل أجرؤ على الظهور بغير هذا المظهر ؟ تصوروا أننى قضيت ثلاثاً وثلاثين سنة مع زوجتى

ولقد كانت هذه الحقبة من الزمن أفضل سنى حياتى . . أى لست أفضلها على الوجه التام ؛ ولكنها تعاقبت مثل لمح البصر، فياليت الشيطان اختطف تلك السنين قبل أن ترانى وأراها . . (يتطلع يمنة ويسرة) يظهر أن زوجتى لم تأتِ بعد ، وما دامت هى غائبة فسأحدثكم بكل شىء عنها . . إننى أخشاها جدًّا . أخشاها عند ما تتطلع فى وجهى بعينيها الملتهبتين . . أما بناتى فلن يتزوجن لأنهن محتجبات فى البيت ولا يحتككن بالرجال ، يضاف إلى ذلك أن زوجتى لا تقيم الحفلات والسهرات فى بيتها. إنها امرأة بخيلة ، سريعة الغضب ، سليطة اللسان ، وهذا ما ينفر منها الناس . . غير أننى أطلعكم على سرٍ (يقترب من كوة الملقن) باستطاعة كل امرئ ان يرى بنات زوجتى فى الأعياد الكبرى عند عمتهن نتاليا سميونوفنا ؛ وهى امراة تعانى آلام الروماتزم وترتدى رداء أصفر نثرت عليه بقع سوداء وكأنها الصراصير ! . . ونتاليا هذه امرأة كريمة لا تبخل علىّ إذا كانت زوجتى غائبة بالقليل من الخمر (ينقف رقبته بأصبعه الوسطى)* وأحيطكم علماً بأننى أسكر من كأس واحدة، وأشعر

* إذا أراد الروسى أن يشرب الخمر عمد إلى النقف على رقبته باصبعه الوسطى

براحة فى النفس يلازمها فى الوقت ذاته حزن أعجز عن وصفه .

لا أدرى ما الذى يدعوننى لتذكرسنى شبابى ، ولا ما الذى يحثنى على الهرب ! . آه لو تعلمون (بصوتٍ عالٍ) كم أتعشق الهرب . . أود أن ألقى بكل شىء وأهرب دون أن أتطلع إلى الوراء . . فإلى أين المفر ؟ لا فرق عندى بين مكان ومكان ، فالمهم هو أن أفرّ من هذه الحياة الرخيصة ، القذرة ، المنحطة ، هذه الحياة التى حولتنى إلى رجل أحمق حقير ، إلى هرم أبله يستحق الرثاء . أريد هجران هذه الزوجة الشريرة الحقود ، التى أذاقتنى مر العذاب خلال ثلاث وثلاثين سنة . . أريد الفرار من دروس الموسيقى والمطبخ ، ومن دراهم زوجتى ، وغيرها من صغائر الأمور . . أريد أن يستقر بى المقام فى مكان ناء فى الخلاء البعيد ؛ فانقلب هناك شجرة أو عموداً أو ألعوبة حقل . وأقبع تحت السماء الواسعة ، وهناك أنسى . . أنسى كل شىء . . .

المعذرة سيداتى وسادتى . . أود ألاّ أذكر شيئاً عن ماضىّ أود أن أنزع عنى هذا الفراك القديم القذر الذى لازمنى منذ ثلاثين سنة خلت (ينزع عنه الفراك) إليك عنى أيها الفراك . . (يدوسه بقدميه) إليك عنى . . إننى رجل مسن فقير حقير

أكل عليّ الدهر وشرب مثل هذه الصديرة (يعرض ظهره للجمهور) . . لا أريد شيئاً بتاتاً إننى أسمى وأشرف من أى طلب كان . لقد كنت يوماً فتى ذكيًا ، تلقيت علومى فى الجامعة ؛ فراودتنى أحلام جمة وراودتها واعتبرت نفسى شخصاً مستكملاً شروط الرجولة . وأما الآن فلا أريد شيئاً سوى الهدوء والراحة (ينظر يمنة ويسرة ويرتدى الفراك)

سيداتى وسادتى ...

إننى لأرى زوجتى بين الستائر ، فهى تنتظرنى هناك (ينظر إلى الساعة) لقد انقضى الوقت فرجائى إليكم إذا سألتكم عن المحاضرة أن تقولوا لها إنها كانت موفقة . . وإن المغفل كان خطيباً مفوهاً (ينظر يمنة ويسرة ويسعل) إنها تتطلع إلى ناحيتى (يرفع صوته) أجل . . ولما كان التبغ يتضمن ذلك السم المريع الذى حدثتكم عنه الآن ، فإننى لا أنصح أحداً بالتدخين ؛ وأمنى نفسى بأن محاضرتى هذه (حول ضرر التبغ) ستأتى بالفائدة المرجوة . . لقد قلت كل شىء . (ينحنى ويخرج بخيلاء)

(يُسدل الستار)

القصص

رسالة إلى جارٍ عالم

جارى العزيز مكسيم . . جُد علىّ بالمعذرة لنسيانى بقية اسمك، ولا تؤاخذنى ، أنا الهرم العتيق والمخلوق الغبى ، لجرأتى على إزعاجك بهذا الكتاب الذى ينطوى على الثرثرة ، والسخف .

مضت سنة كاملة على تفضلك بسكنى هذا الجزء من العالم ، مجاوراً لى ـــ أنا الذبابة الحقيرة - لكننى لم أتعرف إليك طوال تلك السنة ، كما أنك لا زلت تجهلنى تماماً ، فهل تأذن لى الآن ، أيها الجار العزيز ، بأن أتعرف إليك ، بواسطة هذه الرسالة ، وأن أُصافح يدك العالمة ! . . وأرحب بقدمك من بطرسبورغ ، إلى منطقتنا الرِّيفية هذه ، التى لا تليق بمقامك .

لا أذيع سراً ، إن قلت لك : إننى كنت دائم التفكير ، فى كيفية الوصول إليك ، لأنَّ العلوم هى أُمنا المبجلة ، وهى والمدنية صنوان ، وهذا ما دعانى لأن أحترم ذلك الرّهط من

الناس ، الذين ذاع صيتهم ، وأحيطوا بهالات المجد ، وأكاليل الغار ، وتحلّوا بالأوسمة والأوشحة ، وراحت أسماؤهم تدوى كالرعد فى جميع أرجاء العالم المرئى ، وغير المرئى .

إننى أحب الفلكيين والشعراء والكتاب والطبيعيين والكيماويين وغيرهم من كهنة العلم الذين تعتبرُ نفسك أحدهم بفضل ما قدمتهُ من براهين واقعية وما توصلت إليه من نتائج وثمرات وما وضعته من مصنفات ومؤلفات إبان جلوسك بين أدواتك وموازينك وكتبك الأجنبية المحلاة بالصور المغرية . .

لقد زارنى مؤخراً فى أملاكى ، أو فى أنقاضى وخرائبى ، جارى السيد جيراسيموف ، ولما تناولنا الحديث عنك ، هاجم آراءك بصدد منشأ البشر ، وغير ذلك من مظاهر العالم المرئى ، وثار على جوك الفكرى النيّر ، وعلى أفقك الذهنى الرائق ، إلاّ أننى لم أوافقه على اعتراضاته ، لأننى أحيا بالعلم وأتغذى بلبانه ، ذلك العلم الذى هيأته العناية الإلهية للجنس البشرى ، ليتمكن بمعونته من استخراج المعادن واللآلىء من بطون الأرض.

ومع ذلك فالمعذرة يا جارى العزيز إذا أقدمت — أنا الحشرة التى لا تكاد تراها العين — ودحضت بعض آرائك . .

أفادني جيراسيموف ، أنك وضعت كتاباً عرضت فيه مسائل على درجة عظيمة من الأهمية ، تدور كلها حول كيان الإنسان الفطرى الذى عاش قبل الطوفان . . لقد تكرمت وذكرت فى كتابك هذا أن الإنسان تحدّر من فصائل المارموزيت ، والأورانغ أوتانغ ، وهلمّ جرا . فهل لك أن تعذرنى إن خالفتك فى هذه النقطة الهامة ، وأدليت لك بحجج توقفك عند حدك ؟ . . .

إعلم أننا — نحن بنى الإنسان — سادة الكون ، وأنبه جميع الأحياء التى تدب على الأرض، فلو كان مردّنا إلى القردة الجاهلة البلهاء ، لكان لنا أذناب ، وأصوات وحشية ، ولكان النَّوَرُ يطوفون بنا فى المدن والقرى ، فيتلهى بعضنا برؤية بعض ونحن نرقص ، أو نجلس القرفصاء فى أقفاصنا الحديدية !

قل لى يا جارى العزيز : هل تكتسى أجسامنا بشعر القردة ؟.. وألا نتدثر بملابس حُرِم منها ذلك الحيوان ؟ . . ثم . . هل كان بمقدورنا أن نحب المرأة لو فاحت منها روائح كالتى تفوح فى حديقة الحيوانات ؟ . . فلو كان أسلافنا قد تحدروا من القردة ، فهل من المعقول أن يُدفنوا فى مقابر مسيحية ؟ . .

إن جدّى الأكبر أمفروسى الذى عاش فى أيام السيادة البولونيّة ، دفن إلى جانب الراهب الكاثوليكى واكيم شوستاك ، ولم يدفن بوصفه قرداً ! . .

أستميحيك العذر ، لأننى تدخلت فى شؤونك العلمية ، وفرضت عليك آرائى الهمجية الخرقاء ، هذه الآراء ، التى إذا اطلع عليها العلماء والمثقفون ، فسرعان ما تدخل إلى معدهم قبل رؤوسهم ! . . ولكن ما عساى أن أعمل ، وأنا لا أقدر على الصمت إذا ما رأيت العلماء لا يفكرون كما ينبغى عليهم أن يفكروا.

وأحاطنى «جيراسيموف» علماً ، بأن لك نظرية خاطئة بصدد القمر أيضاً . آمل ألاّ تهزأ منى — أنا الرّجل الهرم — إذا ما لمستَ سخفاً فيما أكتبه لك .

أجل ! تفترض أنت أنّ القمر تسكنه قبائل بشرية تنتشر فى جميع أنحائه ، لكننى أجرؤ وأدحض افتراضك هذا بقولى : لو أن القمر مأهول ، لسترت بيوته ، ومزارعه عنا نوره الساحر الأخّاذ ! . . ولانقطعت عنا الأمطار، وآل مصيرنا إلى الهلاك ، لأن المطر يسقط من علٍ على الأرض ، وليس على العكس ، ولوقع سكانه على الكرةِ الأرضية ، وهذا أمر لم يحدث قط . .

ثم ألا يغمرنا القمر بأقداره لو كان مسكوناً ؟ . . وهل يتمكن ساكنوه من البقاء على سطحه إن أحسوا وجوده ليلاً فقط وافتقدوه نهاراً ؟ . . ثم هل تسمح حكومات الأرض للناس بسكنى القمر، ولا تخشى من أن يصبح مأوى للعصاة والمجرمين ؟..

وقال لى «جيراسيموف» أيضاً : إنك ذكرت فى مؤلفك الثمين أن فى الشمس ، وهى أعظم كوكب منير ، كلفاً أو بقعاً سوداء ، غير أننى أنفى ذلك نفياً قاطعاً . وأسألك ، كيف تمكنت من رؤية تلك البقع ، أنت عاجز عن التطلع إلى قرص الشمس ؟ . . ثم ما الفائدة من تلك البقع ؟ ومن أية مادة مائعة تتكون ؟.. وألا تجففها حرارة الشمس ؟ ! يخيل إلى أنك تعتقد أيضاً بوجود أسماك تسبح فى تلك البقع ! سامحك الله . .

أى جارى العزيز . هل لك أن تعذرنى — أنا الغبى — لأننى حاولت تحديد بعض المسائل العلمية بمثل هذه الترهات ؟ ألا اغفر لى مواقفى هذه ، وتأكد بأننى قد كرست حياتى لخدمة العلم فغدت أجنحته بمثابة ستار يقوم ما بين عينى ، ونزوات المال .

إن كل اكتشاف يكتشفه العلماء ، يسبب لى آلاما كالآلام الناتجة عن وخز المسمار فى الظهر ! . . وبالرغم من جهالتى — أنا

الملاك القديم — فإننى أتابع أعمالى فى حقلَىْ العلوم والكشف ، وأصنعها بيدى ! . . وأملا رأسى التافه ، وجمجمتى المتوحشة ، بمجموعة من الأفكار الهامة ، والآراء العظيمة .

إنَّ أمنا (الطبيعة) هى سفر جليل علينا أن نطالعه ونشاهده ! . . أخبرك أننى توصلت إلى اكتشافات عديدة بمجهودى الخاص ، اكتشافات لم يسبقنى إليها أحد . . وأقول ، غير متبجح ، إننى حصلت على معارفى بجهدى وعرق جبينى ، لا بثروة والدى ، فثروة الآباء كثيراً ما تقضى على الأبناء بما توفره لهم من جاه عريض ، ومساكن ذات ستة طوابق ، وخدم ، وأجراس كهربائية . فهاك ما اكتشفه عقلى الرّخيص :

اكتشفت أنَّ شمسنا الكبيرة — المتدثرة بثوب من الأشعة النارية — تطلع على الكون فى أحد الأصباح ، ومرة فى السنة فقط ، بمجموعة نفيسة من الألوان المتناسقة ، فتخلع عليه بريقاً عجيباً ، يأخذ بمجامع القلوب . . ثم توصلت إلى اكتشاف آخر : يتساءل الإنسان كثيراً عن سبب قصر النهار فى فصل الشتاء ، وطول الليل فيه ، فى حين تنعكس الآية فى فصل الصيف . . .

فتفسير ذلك ، أن النهار يقصر شتاء لأنه يتقلص من البرد ،

مثل كل الأشياء المرئية ، وأن الليل يطول ، لأنه يتمدد بفعل نيران المواقد ، ومصابيح البيوت والشوارع ! .

واكتشفت أيضاً أن الكلاب فى فصل الربيع تأكل النباتات مثل الخراف . . وأن القهوة تؤذى أصحاب الأمزجة الدموية من الناس، فهى تحدث فى رؤوسهم دواراً ، وفى عيونهم غبشاً . . .

وتوصلت إلى اكتشاف أشياء كثيرة أخر ، مع أننى لا أحوز شهادات ثانوية أو جامعية .

تعالَ إلى بيتى — يا جارى العزيز — فعسى أن نكتشف شيئاً معاً، وندرس الآداب معاً، وأتلق عليك دروساً شتى فى الرياضيات .

قرأت منذ أمد غير بعيد أن أحد العلماء الفرنسيين وجد أن هيئة الأسد لا تشبه أبداً ملامح الإنسان ! . . وهذه نظرية لها خطورتها ، أترك التحدث عنها إلى أن نلتقى فى القريب العاجل . فتكرم وأحضر إلى بيتى ، ولك أن تحضر غداً مثلاً .

حقاً إننا الآن صائمون ، ممتنعون عن أكل اللحوم ، لكننا سنهيئ لك على كل حال أكلاً متواضعاً ، وأعلمك أن ابنتى نتاشينكا ترجوك أن تجلب لها معك بعض الكتب العميقة الأفكار ، فهى فتاة متحررة تعتقد أنها تنفرد فى العقل

والإدراك ، وأنّ كل ماحولها من الناس ليسوا إلاجهلة أغبياء .

سيزورنى بعد أسبوع أخى إيفان ، فهو رجل طيب القلب ، لكنه ملكىّ النزعة ، ولا يميل إلى العلوم .

وسيحمل رسالتى هذه إليك خادمى تروفيم ، وسيسلمك إياها فى تمام الساعة الثامنة مساء ، فإن جاءك متأخراً ، فاعلم أنه عرّج على خمّارة ، واصفعه على وجهه صفعة أستاذ قدير!..

لست أنا أول من يبتكر عادة التزاور بين الجيران ، ولا آخرهم ، ولذا ، ألحُّ عليك لتزورنى فاحضر ، واجلب معك كتبك وأدواتك ، لقد كان بودى أن آتى بنفسى إليك ، لكننى جدّ خجول ، وتنقصنى الجرأة الأدبية . .

أخشى أن أكون — أنا الرجل الرّجس — قد أزعجتك برسالتى هذه ، فمعذرة .

وتفضل بقبول احترامات جاويش الفيلق القوزاقى المتقاعد ، والمتحدر من صلب الأشراف » .

جارك
واسيلى سيمى بولاتوف

تُريد النوم

كان الوقت ليلاً . . .

وكانت الخادمة ڤاركا ، وهى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها تهز سرير طفل مولاها ، وتغنى له أغنية بصوت خافت أشبه بالهدير ، تقول في مطلعها :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

وكان فى إحدى زوايا الغرفة أيقونة، عُلق فوقها قنديل أخضر ترك زجاجه ظلاً داكناً على السقف ، وامتد فى الغرفة أيضاً حبل نُشرت عليه لفائف الطفل وسروال أسود كبير وقد خلعت هذه الأشياء على الموقد ، وسرير الطفل والفتاة معاً ظلاً طويلاً ، وكان كلما اهتز القنديل اهتز معه ظله على السقف ، وتحرك ظل اللفائف والسروال . وكان الهواء فى الغرفة محتبساً ، فانبعثت منها رائحة الحساء ممتزجة برائحة مصنوعات من الجلود .

طال الوقت على الطفل وهو يبكى ويصرخ حتى بُح صوته وخارت قواه . أما ڤاركا فعبثاً كانت تحاول النوم ، لقد أغمضت عينيها ، وتدلى رأسها على صدرها ، وخُيل إليها أن

وجهها قد جف وتحجر، وأن رأسها صغر حتى غدا حجمه كحجم رأس الدبوس، ومع ذلك كانت تغنى بصوت خافت هو أشبه بالهدير :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

وكان للأصوات الصادرة عن صراخ الطفل، وصرير سريره وهدير فاركا وشخير رب البيت وصفير الجُدجُد فى جدران الموقد، أن تآلفت مع بعضها فغدت تشبه الموسيقى الليلية المهدهدة، التى يحلو للمرء الاستماع إليها وهو مستلق على فراشه، غير أن هذا اللون من الموسيقى إنما يثير الأعصاب، ويضغط على النفس، ويطرد النعاس، ويقهر النوم.

كان القنديل يهتز، وكان ظله وظل اللفائف والسروال يترجرجان ويندسان فى عينى فاركا الجامدتين، شبه المغمضتين فينعكسان فى رأسها المثقل بالنعاس على شكل أحلام يكتنفها الغموض من كل جانب.

تراءت لفاركا غمائم سوداء، تطارد الواحدة الأخرى فى كبد السماء، وتصرخ كما يصرخ الأطفال، ثم ما عتمت الريح أن هبت، فاختفت الغمائم فجأة. وظهرت للفتاة طريق مغطاة بطبقة

من الأوحال الكثيفة ، ازدحمت فيها عربات النقل ، وتدافع الناس بالمناكب وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم ، وكانت هناك أشباح تتقدم القوم ، أو تسير خلفهم ، وترامت على جانبي الطريق أحراج التفت برداء من الضباب الرطب، ثم ظهر للفتاة أن هؤلاء الناس والأشباح يسقطون على الأوحال دفعة واحدة فتتقدم هى نحوهم وتسألهم : ما السبب فى ذلك ؟ فيجيبونها : نريد النوم ! . نريد النوم ! . ويستغرقون فى نوم عذب ، بينما الغربان والعقاعق ، تقف على أسلاك البرق وتحدث صراخاً أشبه بصراخ الأطفال وهدفها من ذلك إيقاظ النيام ! . .

وتهدر قاركا وهى فى حالة من اللاوعى :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

ثم تراءى لها أنها فى كوخ يسوده ظلام حالك احتبس فيه الهواء ، وبلغ مسمعيها صوت والدها المتوفى « أفيم ستيبانوف » وهو يتلوى على فراش المرض ، وقد حانت ساعته ، إنه لا يقوى على النطق بكلمة واحدة لكنه كان يستنشق الهواء ، ويخرجه من بين أسنانه مجزءاً . . آ . . آ . . آ . . .

وتراءت لها أمها « بيلاجيا » وقد هرعت إلى بيت من كانت

تخدم عندهم لتخبرهم أن «أفيم» يلفظ النفس الأخير ، فطال أمد غيابها ، وآن لها أن تعود ، ثم هاهى تسمع صوت وقع أقدام... إنه طبيب كان فى ضيافة مولى أمها ، فلما جاءته مستنجدة أرسله برفقتها ليعود أفيم

وتراءى لفاركا أن الطبيب يدخل الكوخ دون أن ترى له وجهاً فى الظلام ، ثم سمعته يسعل و يقول : أوقدوا النار !

فأجابه المريض : آ . آ . . آ . .

وأسرعت بيلاجيا إلى الموقد وراحت تتلمس علبة الثقاب ، ولما لم تعثر عليها أخرج الطبيب علبة من جيبه وأشعل عوداً منها .

وهنا ، سمعت الفتاة أمها تقول لأفيم : صبراً يا شيخى صبراً ؟ وخرجت من الكوخ و بعد برهة وجيزة عادت و بيدها شمعة أضاءت أرجاء الكوخ ، فظهر أفيم مسجّى على الأرض ، ولخديه لون مثل لون الزهر ، ولعينيه بريق خاطف ، ونظرة حادة .

قال الطبيب مخاطباً أفيم : ما الذى دهاك ؟ تشجع ! وانحنى عليه ؛ وما إن تفرّس فى وجهه حتى قال : أمن زمن طويل وأنت تعانى هذا المرض ؟

فأجابه أفيم هامساً : وما الذى تراه يا سيدى ؟ هل حانت ساعة مفارقتى لعالم الأحياء ؟

قال : طب نفساً يا أفيم ، سنعمل على شفائك بإذن الله .

— شكراً لك يا سيدى . ولكن ما الفائدة من العلاج إذا ما حل ملكُ الموت ؟

فحص الطبيب المريض لمدة ربع ساعة ، ثم نهض وقال : لا بد من نقله إلى المستشفى على عجل . إن علته تتطلب إجراء عملية جراحية ، هيا إلى مستشفى المدينة .

قالت بيلاجيا : أيها الطبيب إننا لا نملك وسيلة لنقله .

قال : لا بأس عليك سأتصل الآن بمولاك وأسأله أن يتكرم بنقل زوجك على عربته .

وتراءى للفتاة أن الطبيب يخرج من الكوخ ، وتنطفىء الشمعة، وتسمع صوت أبيها مرة ثانية يقول مرتعشاً: آ . . آ . . آ . .

ثم تأتى العربة ، ويدخل جماعة إلى الكوخ ، ويلفون المريض بالأحزمة ويرحلون به .

ويسفر الليل عن صباح رائق ، وتذهب بيلاجيا مبكرة إلى المستشفى لتعرف ما حل بزوجها ، ويخيل إلى الفتاة أن طفلاً فى

مكان ما يبكى . . . وأن هناك من يغنى له بصوتها ويقول :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

ثم ها هى أمها تعود ، وترسم إشارة الصليب على صدرها ، وتتحدث بصوت خافت ، أخذوه ليلاً ، وعند الصباح توفاه الله فانتقلت روحه إلى الملكوت السماوى . . حيث الراحة الأبدية .

ويتراءى للفتاة أنها تركت الكوخ ، وذهبت إلى الغابة المجاورة تبكى أباها ، وإنها لكذلك إذ بها تفاجأ بضربة شديدة على ظهرها ، طوحت بها على شجرة الصنوبر ، ولما تطلعت إلى الوراء مذعورة وجدت نفسها أمام مولاها صانع الأحذية يقول لها : خسئت أيتها اللعينة.. تنامين والطفل يبكى الساعات الطوال؟

وقرص أذنها . فاهتز رأسها . . واهتز السرير .

وغنت أغنيتها ، ورقص ظل القنديل الأخضر على السقف ، وترجرج ظل السروال واللفائف ، وعاد إلى مخيلتها منظر الطريق المغطاة بطبقة من الأوحال الكثيفة ، والناس الذين يحملون أمتعتهم على ظهورهم وهم يتدافعون ، والأشباح التى تفترش الأرض وهى تغط فى سبات عميق .

شاهدت فاركا هذا المنظر فطاب لها النوم ، وودت لو يتاح لها أن

ترقد إلى جانب تلك الأشباح ، غير أن الهذيان نقلها على حين غرة إلى حالة ثانية من الرؤى فوجدت نفسها تسرع فى سيرها إلى جانب أمها بيلاجيا ووجهتهما المدينة ، سعياً وراء العمل؛ ولما صادفت أمها أحد المارة ، مدت له يدها مستعطية وقالت : حسنة لله ! . .

وهنا تضطرب فاركا ، فتسمع صوتاً مألوفاً يقول لها بشدة وصرامة : هاتى الطفل . . هاتى الطفل . . تنامين أيتها الخسيسة؟

فتنتبه فاركا مذعورة ، وتجيل النظر فيما حولها . فيتبين لها أن كل ما شاهدته لم يكن غير هذيان . . فلا طريق هنالك ، ولا أب وأم ، ولا مارة ولا أشباح ، وإنما هى مولاتها تقف فى وسط الغرفة ، وقد جاءت لترضع صغيرها .

وبينما كانت السيدة البدينة ذات الكتفين العريضتين منهمكة بطفلها ، انتصبت الفتاة فى مكانها جامدة واجمة ، تنتظر بفارغ الصبر انتهاء مولاتها من إرضاع الطفل . وكانت السماء فى تلك الساعة ، تميل إلى الزرقة ، فاصفر نور القنديل ، وأخذ ظل السروال واللفائف يختفى ويتلاشى شيئاً فشيئاً، فهذه العلامات إنما تؤذن بقرب انبلاج الصباح .

دفعت ربة البيت الطفل إلى الفتاة ، وقالت لها وهى تزرر

صديرتها : هاك الطفل ، ضعيه فى سريره ، إنه لايفتر عن البكاء ، لاشك فى أنك أسأت معاملته .

أضجعت فاركا الطفل فى سريره وجعلت تهزه كسابق عادتها وكان ظل القنديل والسروال واللفائف يضمحل بالتدريج ، فأحست الفتاة بالراحة لخلاصها من أثره المزعج ، إلا أنها كانت تشتهى النوم كأعز أمانيها ، فأسندت رأسها إلى السرير ، وأخذت تهزه هزاً عنيفاً لـكى تطرد النوم من عينيها المتعبتين ، ورأسها المثقل .

وإن هى إلا دقائق ، حتى سمعت مولاها يقول :

— فاركا . . أشعلى النار فى الموقد ! . .

وكان هذا الأمر إشارة إلى أنه قد آن لها أن تنهض ، وتبادر إلى العمل .

فهبت الفتاة ، وأسرعت الخطى إلى الحوش تجمع الحطب ، وكانت تقفز من مكان إلى آخر فرحة جذلة . ففى الحركة ما يبعد عنها شهوة النوم ، وفى إشعال النار فى الموقد ما يبعث الدفء فى جسمها ، فينبسط وجهها المتحجر ، ويصحو فكرها المتبلد .

وفى هذه الأثناء ، قالت ربة البيت : فاركا هيئى الشاى ! . .

ولم تكد الفتاة تضع الفحم فى الموقد وتذكى فيه النار ، حتى قال لها رب البيت :

— فاركا ، نظفى الحذاء . .

فجلست على الأرض تنظف الحذاء ، فساورها سلطان النوم ، واستولت عليها رغبة جامحة لتدخل رأسها فى هذا الحذاء الكبير البعيد الغور ، وترقد فيه ولو ساعة من الزمن ، وإذا بالحذاء ينمو وينتفخ ، ويستوعب الغرفة كلها . ثم ثابت الفتاة إلى رشدها ، وألقت بالفرشاة جانباً ، وجعلت ترج رأسها وتفرك عينيها ، وتحملق فى الأشياء حتى لا تتضخم فى نظرها ، ولا تتزحزح من مكانها .

ثم سمعت صوتاً يقول لها : فاركا اغسلى السلالم ! . .

فتلبى الفتاة الطلب ، وتغسل السلالم ، ثم تكنس الغرف ، وتشعل النار فى مواقد أخرى ، وتذهب إلى حانوت مولاها وترتبه ، وهكذا كانت تجد وتعمل بلا انقطاع غير واجدة لنفسها دقيقة واحدة للراحة والاستجمام .

لكن فاركا لم تستصعب شيئاً أكثر من عملها فى المطبخ ، فإذا ما وقفت تقشر البطاطا شعرت بأن قوة تجذب رأسها نحو

الطاولة ، وأن حبات البطاطا تتحرك أمامها وتقفز ، وأن السكين تتململ فى يدها وتسقط على الأرض ، هذا وربة البيت البدينة تتبختر فى المطبخ وتصرخ فى وجهها ، وتسمعها قارص الكلام .

ثم ينقضى النهار ، وتتطلع الفتاة إلى النوافذ فترى الظلام ينشر ستاره على البلدة ، فتضغط على صدغيها وتبتسم مسرورة ، دون أن تجد لهذا السرور سبباً ، وكل ما كانت تحسه هو أن العتمة تداعب عينيها الناعستين ، وتعدها بنوم هنىء عاجل .

وبعد أن تناول القوم العشاء ، بدأت السهرة وجاء الضيوف فنادى رب البيت الفتاة قائلا : فاركا ضعى النار فى الموقد ، فتشعله ثم تقف على قدميها ساعة كاملة محدقة بالضيوف منتظرة الأوامر ، فيلتفت إليها مولاها ويقول : فاركا أسرعى واشترى لنا ثلاث زجاجات من النبيذ ! . .

فتثبُ من مكانها وتخف إلى تلبية طلب مولاها معللة النفس بأن الحركة تطرد النعاس ، وحينما تعود يبادرها مولاها بقوله : فاركا آتينا بزجاجة الفودكا على وجه السرعة .

وبعد أن غادر الضيوف المنزل ، أطفأت الفتاة الأنوار ، وذهب كل من فى البيت إلى فراشه ، وكان آخر أمر تلقته الفتاة

من مولاتها : فاركا هزى سرير الطفل ! . .

وعاد الجُدجُد إلى الصفير ، كما عاد انعكاس القنديل الأخضر يتأرجح على السقف ، وظلُّ السروال واللفائف ، يغمز عينى الفتاة شبه النائمتين ، ويثقل رأسها . وعادت هى بدورها إلى الهدير :

أهدهـدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

لكن الطفل لا يعبأ بأغنية فاركا ، ولا بهزها لسريره ، فيتابع بكاءه وصراخه ، فتقع الفتاة فى الهذيان من جديد ، فترى الطريق الموحلة ، والناس والأشباح ، وأمها بيلاجيا ، ووالدها أفيم ، ترى كل شىء وتفقه كل شىء ، باستثناء أمر واحد استعصى عليها إدراكه وهو : ماهية تلك القوة التى تقيدها من يديها وقدميها وتشدد الخناق عليها ، وتحول دونها والعيش الهنىء ؟ . .

أجالت الفتاة النظر حولها باحثة عن تلك القوة الخفيـة . فتطلعت إلى إنعكاس القنديل ، وأنعمت النظر فى ظل السروال واللفائف ، وأرهفت السمع إلى صراخ الطفل . . و بعد أن قضت فترة أليمة فى البحث والتفتيش ، إذ بفمها ينفرج بابتسامة

الرضى . لقد عثرت على ذلك الخصم اللدود الذى ينكد عليها حياتها . . إنه الطفل !.

قهقهت ڤاركا ، وساءلت نفسها باستغراب : كيف لم يدر بخلدى من قبل هذا الأمر التافه ؟ . . وخيل إليها أن الجدجد ، وانعكاس القنديل وظل السروال واللفائف ، كلها تضحك منها وتعجب كيف لم تفقه ذلك إلا الساعة ؟

وعلى ذلك ، غدت ڤاركا أسيرة تصور مريع كاذب ، فنهضت عن كرسيها ، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة ، وسارت فى الغرفة ، وهى خاضعة لفكرة تسرها وتدغدغها ! .

قهقهت الفتاة ثانية ، وغمزت بعينيها ، وهددت الظل بأصبعها وتسللت إلى السرير ، وانحنت على الطفل ! . .

وبعد أن تم لهـا ما أرادته ، خيم السكون على البيت ، فانطرحت على الأرض تقهقه بملء شدقيها ، وإن هى إلا ثوان حتى استغرقت فى نوم عميق ، هادئ ، وكأنها قد فارقت الحياة ! . .

من مذكرات حالم

في التاسع من شهر مايو أخذت إجازتي السنوية لمدة ثمانية وعشرين يوماً ، وسألت أمين صندوق دائرتنا أن يقرضني مبلغ مئة روبل ، وعقدت النية على أن أقضي تلك المدة في حياة بذخ واسعة النطاق ، تجعلني أعيش بذكراها ، وبذكراها فقط خلال عشر من السنوات .

أتعرف كيف تكون تلك الحياة ؟ إنها لا تكون بذهابك إلى المسرح الصيفي لمشاهدة أوبريت على ضوء القمر ثم عودتك إلى البيت في الصباح نشوان . . . وهي لا تعني ذهابك إلى المعارض ، ومن ثم إلى حلبة سباق الخيل ، حيث تأمل أن يأتيك الربح وإنما هي أن تجلس في القطار وتتجه نحو الهواء الطلق المشبع بعبق البنفسج ، وزهر الكرز . . . هناك حيث حبات الندى الماسية تداعب نظرك ببياضها اللطيف وبريقها الأخاذ ، حيث الأراضي الفسيحة والسماء الزرقاء ، حيث تنبسط أمامك الأحراج الخضراء ، وتكون في عشرة الطيور ، وتستمع إلى خرير المياه المنسابة في الجداول ، هناك فقط تدرك ماهية

الحياة . أضف إلى ذلك مقابلتين أو ثلاثاً مع صاحبات قبعات القش الواسعة ، والقفازات البيضاء . . أقر بأننى حلمت بذلك كله بعد أن نلت الإجازة ، وغمرنى أمين الصندوق بلطفه وكرمه فأسرعت إلى بيتى وأخذت أتأهب للسفر إلى الريف .

عملت بنصيحة أحد الأصدقاء ، واستأجرت فى قرية «بيريريفو» غرفة فى بيت السيدة صوفيا بافلوفنا كنيغينا ، وقد جرت عملية الاستئجار بأسرع مما كنت أتوقع .

بحثت عن بيت السيدة كنيغينا حال وصولى إلى القرية ، فاهتديت إليه دون كبير عناء ، ولما وطئت قدماى ردهة البيت الخارجية ، دهشت لما شاهدت فيها من فرش حسن يدل على النعمة وسعة العيش . وقد أثارت دهشتى أكثر من الفرش . تلك الصبية المليئة الجسم التى كانت تجلس إلى جانب النضد وتشرب الشاى . . . وإذ وقع نظرها على واقفاً مشدوهاً قالت : أتريد شيئاً ؟ قلت : المعذرة يا سيدتى . إننى . . يبدو لى أننى أخطأت الهدف ، إننى أبحث عن بيت السيدة كنيغينا .

قالت : أنا هى بالذات ، فما الذى تريده ؟

مادت بى الأرض لدى سماعى جوابها هذا ، لأننى اعتدت

أن أرى في صاحبات البيوت والفيلات نسوة طاعنات فى السن مقعدات ، تنبعث منهن رائحة القهوة ، لكننى هنا — أنقذونا يا ملائكة السماء ، على حد قول هاملت — أمام امرأة حسناء ، رائعة فاتنة . .

قلت لها أريد غرفة فى بيتك هذا لقضاء إجازتى السنوية .

قالت : آه إن هذا لما يسرنى جداً ، تفضل واجلس ، لقد كتب لى صديقك بذلك ، ألا تريد شاياً؟ . وهل تحبه مع المربى أم مع الليمون ؟

هناك نوع من النساء — والشقر منهن خاصة — يكفى أن تجلس معهن دقيقتين أو ثلاثا حتى تظن أنك تعرفهن منذ أمد بعيد ، وأن بيتهن إن هو إلا بيتك .

وهذا عين ما حدث لى مع صوفيا بافلوفنا ، فما إن شربت عندها الكأس الأولى من الشاى حتى عرفت منها أنها غير متزوجة ، وأنها تعيش على الفائض ، وتتوقع زيارة عمتها لها ، وعرفت أيضاً الأسباب التى حملتها على تأجير غرفة فى بيتها. الريفى هذا . وخلاصة هذه الأسباب أنه يصعب على امرأة أن تدفع بمفردها مبلغ مئة وعشرين روبلا إيجاراً سنوياً ، وإنه لما

يخيف امرأة أن تظل فى منزل ريفى وحدها ، فربما هاجمها لص فى الليل على حين غرة ، أو ربما دخل عليها فلاح مرعب فى رائعة النهار . وعلى ذلك ليس هناك من يلوم صوفيا بافلوفنا إن هى أجرت غرفة بمنزلها لأحد من الناس ، رجلا كان أو امرأة .

وعلقت صوفيا على كلامها هذا وهى تلعق المربى : ولكننى أفضل مجاورة الرجال ، فهم أقل مشاكل وأبعث على الطمأنينة . .

وصفوة القول لم تمر ساعة من الزمن حتى تصافيت مع صوفيا بافلوفنا وأصبحنا صديقين حميمين .

ثم قلت لها : تحدثنا عن كل شىء مهم ، وأهملنا الأهم ، فكم تريدين أجراً للغرفة ؟ . سأظل عندك مدة ثمانية وعشرين يوماً ، وسأتناول الغداء طبعاً ، والشاى ، وغيره . .

قالت : وجدت موضوعاً تتحدث فيه ، ادفع ما تستطيع دفعه إننى لا أؤجر الغرفة لاعتبارات مالية ، وكل ما أرمى إليه ، هو أن أرى الغرفة مأهولة . . أتستطيع دفع خمسة وعشرين روبلا ؟

قبلت الشرط وبدأت حياتى الريفية . واللطيف فى هذه الحياة أن نهارها يشبه نهارها ، وليلها يماثل ليلها ؟ وكم من لذة يجدها المرء فى هذه الأيام والليالى المتواترة المتشابهة ؟

أستميحك العذر أيها القارئ العزيز . . . إن أنا عانقتك من شدة الفرح . . لقد كنت أستيقظ صباحاً غير مفكر بتاتاً فى أعباء الوظيفة ؛ فأشرب الشاى مع المربى ، وفى الساعة الحادية عشرة أزور صاحبة البيت لأحييها تحية الصباح، وأشرب عندها فنجاناً من القهوة مع المربى اللذيذة الطعم ، ثم نأخذ نثرثر إلى أن يحين موعد الغداء .

وأى غداء شهى تعده صوفيا بافلوفنا . . . تصور نفسك خائراً من الجوع، ثم يقدم لك كأس من النبيذ المعتق، ولحم مشوى مع المقبلات ، ويتبع ذلك حساء الخضار بالزبدة ، ثم غيره وغيره . . . وبعد أن تنتهى من غدائك تضطجع فى سريرك ، وتطالع رواية مسلية ، بينما صاحبة البيت تروح وتغدو إلى جانب باب الغرفة وتقول لك : لا تنزعج . . . نم ! . . نم ! . .

وتنهض بعد القيلولة فتشرب الشاى مع المربى ، وعندما يأتى المساء تتعشى ، وإذ يأوى الناس إلى بيوتهم ، ولا تعود تسمع فى القرية إلا زقزقة العصافير يتخللها أحياناً صراخ مالك الحزين ، أو صفير قطار آت من بعيد، يبلغ مسمعيك بكل مشقة تخرج أنت وصوفيا بافلوفنا إلى الغابة القريبة فتسرحان فيها حتى

ساعة متأخرة من الليل ، فتارة تلجان الدّغل ، وتارة أخرى تنقلان الخطى على متاريس الخط الحديدى ، وإذا ما أحست الشقراء المكتنزة الجسم برعشة من برد المساء تشبثت بك ، وحولت إليك بين الفينة والأخرى وجهها الناصع البياض وقد عكس القمرُ عليه أشعته الفضية... فيا له من منظر خلاب بديع!..

ولم ينقض أسبوع على إقامتى عند صوفيا بافلوفنا حتى حدث ما تتوقعه أيها القارئ ، وحدوث مثل هذا الأمر لا مفر منه لأية قصة لها وزنها ... إننى لم أطق الصمت وفاتحت صوفيا بحبى لها ... فأصغت إلى غير مكترثة، بل استمعت فى شىء من البرودة، وكأنها توقعت ذلك منذ البداية ولوت شفتيها بلطف كما لو كانت تريد القول : وما الداعى لكثرة التحدث فى هذا الصدد ؟

ولّت أيام الإجازة كما تولى الثانية الواحدة ، فأخذت أرتب حوائجى فى الحقيبة وأودع النزل وصاحبته .وذاع المستوحش المتألم ، وكانت صوفيا تجلس على المقعد تكفكف الدمع ، فاقتربت منها وهدأت من روعها واعداً إياها بأن أتردد عليها فى بيتها القروى هذا فى أيام الأعياد ، وأن أزورها فى موسكوفى فصل الشتاء وقلت: متى نتحاسب يا منى القلب، وما هو المبلغ المطلوب منى؟

قالت وهى تغص بالبكاء : نتحاسب فيما بعد ! . .

قلت : وما الداعى لهذا التأجيل ، فالمثل يقول . . الصداقة صداقة ودع المال جانباً . . إننى لا أود العيش على نفقتك فلا تتعبى نفسك يا صوفيا ، وخبرينى كم تريدين منى من الروبلات ؟

أجهشت صوفيا بالبكاء وقالت وهى تسحب درج النضد : هناك مبلغ تافه . . بوسعك أن تدفعه فيما بعد . . ثم نقبت فى الدرج وأخرجت منه كشفاً وقدمته لى .

قلت : وأخيراً ، هذه هى قائمة حسابى ، لقد أحسنت عملا . . ووضعت نظارتى على عينى وألقيت على الكشف نظرة عجلى . . ما هذا ؟ ! هذا ليس حسابى يا صوفيا . . إن هذا الكشف يتضمن مبلغاً قدره ٢١٢ روبلاً و ٤٤ كوبيكاً ! . . يخال إلىّ أنك قدمت لى حساب غيرى .

قالت : كلا ياحبيبى ! هذا كشف حسابك ، فافحصه جيداً . .

ولكن كيف تجمع علىّ كل هذا المبلغ ؟ إننى أوافق على دفع خمسة وعشرين روبلاً للغرفة كما اتفقنا ، وأوافق أيضاً على دفع ثلاثة روبلات للخادم ، وأما الباقى فلا يدخل فى حسابى بتاتاً .

تطلعت إلى صوفيا بافلوفنا بعينين باكيتين مستغربتين وقالت:

إننى لا أفهمك يا شقيق الروح ! ... ألا تثق بى ؟ . فاحسب إذا أردت ... ألم تشرب الخمر قبل الأكل ؟.. وألم تحتس الڤودكا فى أثناء الطعام ؟ . . أونسيت المربى مع القهوة والشاى والتوت البرى والخضار ؟.. أمّا القهوة فلم نتفق عليها سلفاً وكنت تشربها مرّات عديدة فى النهار ومع ذلك فالأمر تافه وبوسعى أن أخصم لك اثنى عشر روبلا .. ولتدفع لى مئتى روبل فقط ! ..

— لكننى أرى فى الكشف مبلغ خمسة وسبعين روبلاً ولم تذكرى فى أى باب أُنفقت ؟

— أنسيت فى أى باب أُنفقت؟ حقاً إنها لمداعبة لطيفة منك؟

تطلعت فى وجه صوفيا طويلاً ، فكان صادقاً صافياً ، تعلوه علائم الاستغراب ... فانعقد لسانى فى فمى ، ولم أنطق بكلمة واحدة ، فقدمت لها مئة روبل وحرّرت كمبيالة بمئة أخرى ، وحملت حقيبتى على كتفى ، ووليت وجهى شطر محطة سكة الحديد

أيها السادة ألا يقرضنى أحدكم مئة روبل ؟ !

صبي شرير

سار إيڤان إيڤانتش لايكين ، وهو شاب لطيف المحيا ، إلى جانب أنَّا سيميونڤنا زامبليتسكايا ، وهي فتاة لها أنف مرتفع الأرنبة ، وكانا يتجهان إلى شاطئ البحر ، وإذ بلغاه ، جلسا على مقعدٍ لا يبعد إلا خطوات من المياه ، تظلله بعض شجيرات الصفصاف الكثيفة اليافعة . . إنه لمكان رائع حقاً ، فلو أتيح لكم وجلستم فيه لاستترتم عن العالم ، ولما رأيتم سوى الأسماك والعنكبوت ، والبريق المتراكض على صفحة الماء . . وكان الشابان يحملان أدوات صيد الأسماك ، من عصيّ طويلة ، وصنارات ، وأنبوبة زجاجية تتزاحم فيها الديدان ، وما كادا يجلسان حتى بدآ يصيدان .

ثم بادر لايكين رفيقته الحديث وهو يتلفت يمنة ويسرة : إنني جد مسرور في نهاية الأمر . . لأننا غدونا بمفردنا ، أود أن أحدثك يا أنَّا سيميونڤنا عن أشياء كثيرة . . فلما شاهدتك لأول مرة . . انتبهي ! . . سمكة تقضم صنارتك ! . . أدركت وقتئذ قيمة الحياة . . وعثرت على معبودتي التي يجب عليّ أن

أكرس لها حياتى الشريفة المثمرة . . انتبهى ! . . سمكة تقرض صنارتك ! . . أجل ! حين شاهدتك أحببتك بكل قواى . . انظرى الصنارة ترتعش ! . . أناشدك أيتها العزيزة أن تطمئنى قلبى . . أيمكننى أن أعتمد على . . كلا ، ليس على حب متبادل إننى لا أستحقه ، بل ولا أجرؤ على التفكير فيه . أيمكننى أن أعتمد على . . اسحبى الصنارة ! . .

ورفعت أنّا يدها إلى أعلى وجذبت الصنارة . . وإذا بسمكة فضية تلمع فى الهواء ، فما إن وقع نظرها عليها حتى صرخت تقول : رباه . شبوط . . آه . . آه أسرع . . لقد أفلت ! . .

وهكذا أفلت الشبوط ، وقفز على الحشائش ، ثم قفز قفزة أخرى وإذا به يعود إلى موطنه الطبيعى ، ويتخبط فى المياه قليلاً ثم يغوص . .

وأسرع لايكين فى أثر السمكة ، وأمسك سهواً بيد أنّا سيميونفنا بدلاً منها . . ووضعها على فمه ، دون أن يعى ما يفعل . فاهتزت الفتاة ، وحاولت التخلص ، ولكن محاولتها جاءت متأخرة ، واحتجاجها اختنق فى حلقها ، لأن الشفاه التقت عفواً

فى قبلة حارة ، أعقبتها قُبل أخرى . . ثم كان القَسَمَ ، وكان التأكيد . . فيا لها من دقائق سعيدة ! . .

والشيء بالشيء يذكر . ليس فى هذه الحياة الزمنية سعادة مطلقة . فالسعادة عادة تحمل فى ذاتها سماً تسمم به نفسها ، أو يأتيها هذا السم من الخارج ، وهذا ما حدث للفتى والفتاة إذ ما كادا يتعانقان حتى بلغ مسمعيهما ضحك مزعج ، فتطلعا إلى المياه مرتبكين وإذا بصبي عارى الجسم يقف فى المياه حتى الخاصرة ، ويرمقهما بنظرات خبيثة ويضحك ، ولم يكن هذا الصبي سوى التلميذ كوليا شقيق أنا سيميونفنا . .

وقال لهما الصبي : آ . آ . . آ . . رأيتكما تتعانقان ، انتظرا سأقول للماماشا ! . .

فأجابه لايكين وقد احمر وجهه خجلاً : اسمع يا كوليا ، أنت صبي شريف ومن النذالة أن تراقب غيرك . ثم من الحطة واللؤم والسفالة ، أن تنقل ما تراه إلى غيرك ! . . فأملى فيك بوصفك صبياً شريفاً نبيلاً أن . .

فقاطعه الصبي النبيل قائلاً : أعطنى روبلاً وإلا بحت بما رأيت . .

فأخرج من جيبه روبلاً وقدمه إلى كوليا فتناوله هذا وضغط عليه فى راحته المبتلة وصعّر ، وابتعد سابحاً . .

وفى اليوم التالى ابتاع لايكين من المدينة أقلاماً ملونة وكرة وقدمها إلى كوليا ؛ كما أن شقيقته أهدته كل ما لديها من علب فارغة ، ثم قدما له معاً سلسلة فى طرفها رأس كلب ؛ ويبدو أن هذه الهدايا المتوالية لاقت هوى فى نفس الصبى الشرير . . فطفق يراقب الفتى والفتاة ، ويشدّد عليهما الخناق . فحيثما التقيا كان هو لهما بالمرصاد ، لا يفارقهما لحظة واحدة .

وحدث مرة أن اغتاظ لايكين من مضايقة كوليا وقال له وهو يقضم أسنانه غضباً : يا لك من وقح . . إنك مخلوق صغير ، لكنك لئيم كبير ! . .

وانقضى شهر يوليو كله وكوليا مواظب على تعكير صفو المحبين المسكينين ، وكان يهددهما دائماً بالوشاية بهما ، ولا يردعه عن ذلك إلا الهدايا المتواصلة . وأخيراً أخذ يحدثهما عن ساعة جيب فوعداه بها مرغمين .

وبينما كان ثلاثتهم يتناولون الغداء مع بقية الأهل ، قهقه كوليا على حين غرة ، وغمز لايكين بعينه وسأله : أأقول ؟ ! .

فاحمر وجه لايكين خجلاً وارتبك ارتباكا شديداً حتى إنه وضع الفوطة فى فمه مع قطعة الخبز . أما أنا سيميونفنا فما كان منها إلا أن نفرت من مكانها وهرعت إلى غرفة مجاورة تاركة الأهل فى حيرة من أمرها .

وظل لايكين وأنا عرضة لمضايقة الصبي وكثرة مطالبه إلى أن هلّ شهر أغسطس فتقدم الشاب من أبوى الفتاة طالباً يدها ، إذ حالفه التوفيق ونال موافقتهما فرح فرحاً عظيما ، وكان أول ما فعله أن عدا إلى الحديقة باحثاً عن الصبي كوليا الشرير فما إن عثر عليه حتى فرك أذنه ، وكانت أنا فى تلك الآونة تبحث عن كوليا فى الحديقة أيضاً ، فأسرعت إليه وفركت أذنه الثانية .

وللقارئ أن يتصور مدى الغبطة التى استولت على نفسى المحبين وهما يصغيان إلى بكاء كوليا وتوسلاته وهو يقول لهما : عزيزى . . حبيبى . . لن أفعل . . آخ . . آخ . . سامحانى ؟!

وقد أقر الزوجان فيما بعد بأنهما لم يتذوقا ، طيلة أيام حبهما ، سعادة كتلك التى غمرت نفسيهما وهما يفركان أذنى الصبي الشرير ! . .

ڤانكا

فانكا جوكوف صبي في التاسعة من عمره ، مضت عليه ثلاثة أشهر وهو يعمل أجيراً عند صانع الأحذية المعلم الياخين في موسكو ، وفي عشية عيد الميلاد ، كان الصبي يتقلب على فراشه قلقاً مضطرباً يطلب النوم ولا يأتيه .

وإذ انبثق الفجر ، وذهب معلمه مع أسرته إلى الكنيسة ليؤدوا الصلاة ، أسرع فانكا إلى الخزانة ، وأخرج منها دواة ، ومسكة تقبض على ريشة يعلوها الصدأ ، فوضعها على مقعد خشبي ، وركع على ركبتيه إلى جانب المقعد ، ثم نشر عليه ورقة بالية ، وهم بالكتابة .

وقبل أن يخط الكلمة الأولى ، تطلع إلى الباب والنافذة وجلاً ، ثم رمق صورة القديس بطرف عينه ، وأجال النظر في الرفوف التي تكدست عليها قوالب الأحذية ، وهو يصعد النفس متقطعاً .

وشرع يكتب : جدّي العزيز . . كونستانتين ما كاريتش هأنذا أكتب لك كتاباً أحييك فيه تحية عيد الميلاد .

وأسأل الله أن يمنحك الخير العميم ، وأن يطيل حياتك ، إذ لم يبق لى سواك بعد أن فقدت أبى وأمى ».

وحوّل فانكا نظره إلى النافذة ، وكان نور الشمعة يتلألأ عليها ، فتخيل جده الذى يعمل حارساً ليلياً فى بيت السيد جيفاروف ، منتصباً أمامه ، وكان جده هذا ، رجلا قصير القامة، نحيف الجسم ، فى الخامسة والستين من عمره ، إلا أنه ما فتئ رشيقاً نشيطاً ، لا تفارق ثغره الابتسامة ، ففى النهار يرقد فى المطبخ ، أو يداعب الطاهيات ، وفى الليل يلتف بفروته المهلهلة ويدور حول منزل مولاه ضارباً الأرض بعصاه ، يتبعه كلباه « كاشتانكا » و « فيون » ، وهذا الأخير أسود اللون ، طويل الجسم ، قريب الشبه بابن عرس ، دقيق النظر ، مدلل محبوب ، ويتمتع بسمعة طيبة بين أربابه والغرباء ، مع أنه كان يخفى تحت لطفه وتواضعه حقداً وخبثاً غريبين ، وليس أقدر منه فى التسلل إلى حيث تدفعه حاسة الشم ، كما أنه ماهر جداً فى التعلق بأرجل الناس ، وسرقة الدجاج من الفلاحين . .
فطالما رُكل وجلد عقاباً له على وقاحته ، حتى إن بعضهم علقه

من عنقه مرتين ، وبالرغم من ذلك كله ، كان « فيون » ينهض وكأن شيئاً لم يحدث له !

تصور ڤانكا جده واقفاً حسب عادته عند بوابة المنزل ، موجهاً نظره إلى نوافذ الكنيسة الحمراوية اللون ، وقد انكمش على نفسه من شدة البرد ، فراح يضرب الأرض بحذائه الغليظ ويفرك يديه ، ويسعل ، ويمازج الطاهيات ، والخادمات ، ويقرصهن فى أيديهن مداعباً مماجناً ، ثم يخرج من جيبه علبة السعوط ويعرضها عليهن متسائلاً : أتردن الاستنشاق ؟ فتأخذ النسوة القليل من السعوط ويستنشقنه ، وسرعان ما ينهمكن فى العطس ، وجدّ ڤانكا يضحك مسروراً ويصرخ : هلكت من الصقيع .

ثم يضع السعوط عند أنف الكلبة « كاشتانكا » فتعطس ساخطة مستاءة ، ويضعه عند أنف الكلب « فيون » فيرى هذا أن من الكياسة والتواضع ألا يعطس ويكتفى بأن يلوى ذنبه . وكان الطقس إذ ذاك جميلاً ، والهواء ساكناً ندياً . وإذ يقبل الليل وتغرق القرية فى لجته ، تبدو البيوت بسطوحها البيضاء ، والمداخن تبعث الدخان أعمدة . . والأشجار وقد

اتشحت برداء فضى ، وتدلت عروقها تحمل ذرات الصقيع ، والسماء تعج بالنجوم التى تغامز بعضها فرحة مغتبطة ، والمجرة بدت جلية واضحة ، وكأنها غُسلت عشية العيد ، وفُركت بالثلج ! . .

تنفس فانكا قليلاً ، وتابع كتابة رسالته إلى جده فقال :

« اقتادنى معلمى أمس من شعرى إلى الحوش ، وانهال على ضرباً بالسير لأننى هززت طفله عفواً فغفا . وحدث يوم الأحد الفائت أن طلبت منى معلمتى أن أنظف لها سمكة ، فبدأت بتنظيفها من ذنبها ، فحنقت على ، وانتزعتها من يدى ، وزجت رأسها فى فمى . .

« إن غذائى فى هذا البيت ، يتألف من خبز فى الصباح ، وبرغل عند الظهر ، وخبز فى المساء ، ولا أعرف للشاى والحساء طعماً ، أما نومى ففى الممر حيث أكون عرضة للبرد القارص .

« وأخبرك يا جدى أن أجراء معلمى يهزؤون بى ، ويرسلوننى إلى الخمارة لـكى أحضر لهم الفودكا ، ويسألوننى أن أسرق لهم الخيار من بيت معلمى ، وهذا يضربنى بكل شىء يقع فى يده ، لأقل هفوة تبدو منى .

« أى جدى العزيز . . . ارحمنى بالله عليك ، وخذنى من هذا البيت إليك ، فليس عندى أية حيلة للخلاص ، خذنى من هذا المكان ، أنا أقبل قدميك وأدعو لك دائماً ، وإن لم تفعل ، فإننى لا محالة هالك » .

لوى فانكا فمه . ومسح عينيه بقبضته القذرة ، وغصّ بالبكاء ، ثم واصل الكتابة :

« وسأفرك لك يا جدى الدخان ، وأسأل رضاك ، وإن خالفت لك كلمة فاضربنى ، وإن تبين لك أننى لن أجد عملاً لديك ، فائذن لى بالعمل فى مسح أحذية متعهد القرية ، أو أن أرعى الماعز بدلا من فيدكا .

« أجل يا جدى العزيز ! ليس لى من منقذ سواك . لقد حاولت الفرار مرة إلى قريتك ؛ لكننى عدلت عن ذلك ، لأننى لا أملك حذاء أقى به قدمى من الصقيع . . خذنى يا جدى وكن على ثقة بأننى إذا ما بلغت الرشد فسأقابل جميلك بالمثل ، وسأعمل على إعاشتك ، ولا أدع أحداً يسىء إليك ، وإن توفاك الله ، فإننى سأصلى لروحك كما أصلى لروح أمى .

« إن موسكو لمدينة كبيرة ، وبيوتها فخمة وخيولها كثيرة ،

لكننى لا أجد فيها خرافاً ، وكلابها غير مؤذية ، وأطفالها لا يطوفون بالأحياء فى ليالى الأعياد ، ولا يسمح لهم بالاشتراك فى التراتيل الكنسية .

« ورأيت مرة فى واجهة حانوت ، صنانير بعصيها ، يستطيع المرء أن يصطاد بها أية سمكة كانت ولو بلغ وزنها الرطل . وشاهدت فى بعض المخازن أسلحة مختلفة الأشكال بديعة الصنع ، جميلة المنظر ، والله يعلم كم تساوى من مئات الروبلات . . وشاهدت فى بعض حوانيت اللحامين عدداً كبيراً من الدُرّاج ، والأرانب ، ودجاج الأحراج ، والعجيب أن الناس لا يستفهمون أبداً عمن اصطاد هذه الطيور ! . .

« جدى العزيز . أرجوك أن تتذكرنى وقت أن ينصب السادة شجرة عيد الميلاد ، واقتطف لى منها جوزة مذهبة ، واحفظها فى صندوق أخضر . والسيدة أولغا إيغناتيفنا لا تعارضك إذا علمت أن الجوزة لى » .

* * *

وجّه الطفل نظره مرة أخرى صوب النافذة وعاودته الذكريات ، وقت أن كان يذهب مع جده لجلب شجرة عيد الميلاد ، فيالها

من أيام طيبة ! كانا يذهبان معاً إلى الغابة . وسط الثلوج ، فيشعل جده غليونه ، ويستنشق الدخان طويلاً ، ويضحك من حفيده الذى يرتعش من البرد ، بينما الشجيرات الفتية المكتسية بالصقيع تقف جامدة لا تدرى من منها سيكون نصيبه الموت . . وإذ يمر بهما أرنب منطلق كالسهم ، يصرخ جده بأعلى صوته : أمسك ، أمسك . . آه يا ذنب الشيطان !. .

وبعد أن يقطع جده الشجرة ، يجرها إلى بيت سادته : وهناك يقبل الكل على تنظيفها وترتيبها ، وتكون أكثرهم اهتماماً بها السيدة أولغا إيغناتيفنا ، حبيبة فانكا .

كانت أم فانكا تخدم فى هذا البيت ، وكانت السيدة أولغا تقدم لطفل مخدومتها اللبن ، وتعلمه القراءة والكتابة والعدّ حتى المائة ، والرقص أيضاً ، وحين وافى أمه الأجل أحالت السيدة أولغا الطفل اليتيم إلى العمل مع جده فى المطبخ ، ومن ثم نقل إلى موسكو ليعمل عند صانع الأحذية « المعلم إلياخين » .

وتابع فانكا كتابة رسالته إلى جده وقال :

« احضر إلى موسكو ياجدى العزيز ، أتوسل إليك من أجل المسيح أن تنقلنى من هذا المكان ، أشفق على هذا اليتيم التعس .

إن كل من فى هذا البيت يضربنى، وأنا أشتهى الطعام ، وأكاد أهلك من الضجر ، ولا أنفك عن النحيب ، وذرف الدموع . وحدث مؤخراً ، أن ضربنى معلمى على رأسى بقالب الحذاء ، فوقعت على الأرض ولم أستطع النهوض ، إلا بكل مشقة آه . . لقد ضيعت حياتى ! . إنها لأسوأ من حياة الكلاب ! . .

« سلامى إلى كل من هيلين ، و إيغور الأكتع ، والسائق ساشا ، وأرجوك ألا تعطى أحداً « مزيكتى » .. احضر يا جدى وابق لفيدك المطيع إيفان جوكوف » . . .

وطوى فانكا الرسالة ، ووضعها فى مغلف كان ابتاعه بكوبيك واحد .. و بعد أن أعمل فكره قليلا ، غمس الريشة فى الدواة ، وكتب على الغلاف :

« إلى قرية جدى ! »

ثم حك رأسه بطرف الريشة ، وأضاف إلى العنوان :

« كونستانتين ما كاريتش »

كان سرور فانكا عظيماً لأن أحداً لم يزعجه فى أثناء كتابة رسالته هذه ، فهبَّ من مكانه ، واختطف قبعته ، ووضعها على رأسه ، وهرع إلى الشارع ، فى قميصه ، ساهياً عن لبس معطفه .

كان رواد حانوت اللحام الذين قابلهم فانكا بالأمس قد أحاطوه علماً أن الرسائل تلقى عادة فى صناديق البريد ، ثم تجمع منها وتوزع إلى جميع أنحاء العالم ، على زحافات تجرها خيول مطهمة ، ترن فى أعناقها الأجراس ، ويقودها سواقون سكارى وهكذا أقبل فانكا على أول صندوق للبريد ، وأدخل رسالته الثمينة فى شقه . . .

. .

وعاد الصبي إلى البيت ، واستلقى على فراشه تهدهده الأمانى العذبة ، وبعد ساعة من الزمن ، أغمض جفنيه ، واستسلم إلى سلطان الكرى ، فشاهد فى نومه جده يجلس على سطح الموقد وقد تدلت قدماه ، وأمسك بيده رسالة فانكا يقرأها على طاهيات البيت وخادماته . . بينما الكلب « فيون » يسير إلى جانب الموقد ، وهو يهزّ ذنبه . . .

فى الحمّام

كان سيدٌ بدين يغتسل فى الحمّام، و إذ لمح من خلال الضباب رجلاً طويلاً نحيفاً ، له لحية يهودية ، و يعلق على صدره صليباً صاح فيه قائلاً : أيها الحمامى ؟ . . ايتنى بالماء الساخن . فأجابه الرجل : ليس من شأنى جلب المياه الساخنة يا سيدى ، فإننى لست بحمامى ، و إنما أنا حجّام ، فهل تود استعمال أقداح الحجامة ؟... ارتاح السيد البدين لهذا السؤال ، وألقى نظرة عجلى على وركيه الجراوين ، وأجاب : هات أقداح الحجامة ، ولعل فى استعمالها بعض الفائدة . فأسرع الحجّام إلى غرفة الاستراحة . وعاد بأدواته ، ولم تمض خمس دقائق ، حتى كانت عشرة أقداح عالقة على صدر السيد وظهره .

و بينما كان الحجّام يضع القدح الحادى عشر ، قال لزبونه : أتذكر يا سيدى وقت أن زرتنا يوم السبت الماضى وقد طلبت منى بعد أن اغتسلت أن أنزع الثآليل عن أصابع قدميك ؟ . . أنا الحجام ميخايلو . . أتذكر حين سألتنى عن الفتيات الخاطبات ؟ فأجابه : أجل أذكر ذلك ، وما الذى تريده ؟ . . قال :

لا أريد شيئاً ، لكننى أود إطلاعك على ما أضمره لك من ملامة يا سيدى . . رغم ما فى ذلك من تعرض لوقوعى فى الخطيئة وأنا مقبل على تناول القربان ، فما أود أن أبوح به إليك يا سيدى هو أن فتياتنا فى الماضى كن يطمحن فى الزواج من رجل قوى ، صارم ، ثرى ، متدين . وأما فتيات هذه الأيام فينتهجن طرقاً معوجة شائكة . إنهن يبحثن عن الرجال المتعلمين فقط . . قدم لهن رجالا متعلمين ، والويل لك إن عرفتهن إلى رجال من التجار أو الموظفين ! .

والمتعلمون يا سيدى على أصناف . فنهم من يبلغ أعلى المناصب ، ومنهم من يظل طيلة حياته يحبر الأوراق ثم يموت فقيراً معدماً غير مدخر ثمناً لنعشه . ومن هؤلاء الناس ، وعددهم لا يستهان به ، شاب متعلم يعمل فى دائرة البرق ، تراه يحذق كل الأمور حتى اختلاق البرقيات ! .. لكنك إذا نظرت إليه ، لا يسعك إلا أن تتألم وتأسى لبؤسه ، وهو من زبائن هذا الحمَّام الذين يغتسلون بالماء دون الصابون !

وهنا قاطعه رجل بصوت جهورى فيه بحة ، وكان يجلس على المصطبة في الجوار . وقال :

— عامل البرق هذا فقير لكنه شريف ، وإننا لنفخر بمثل هؤلاء الناس ونعتز ، فالعلم مع الفقر دليل على سمو النفس ، أفهمت ذلك أيها الجاهل ؟

تطلع ميخايلو بطرف عينه إلى مصدر الصوت فرأى رجلاً هزيلاً ، برزت عظام جسمه بروزاً واضحاً فبدا صدره وظهره وكأنهما مؤلفان من جلد وأضلع فقط ، وكان شعره الطويل يتدلى على وجهه ، فغطاه ولم تظهر منه سوى عينين سددتا إلى الحجّام وهما تحملان كل ما في النفس من حقد وازدراء .

فتمتم ميخايلو قائلا : أأنت منهم ! أأنت من أصحاب الشعر الطويل ؟ ! . . ومن ذوى الأفكار ؟ . . يا للمطاعة لقد تكاثر هؤلاء القوم فتعذر اقتناصهم كلهم . . هه . . إن الأحاديث المسيحية تزعج هذا الهيكل العظمى . . إنه يتحمس للمتعلمين ؟.

ثم تلفت الحجّام إلى زبونه وقال له : إن فتيات اليوم يملن إلى مثل هذا الرجل . أرأيت أمراً أبشع من هذا الأمر ؟ لقد دعتنى في الخريف الماضى ابنة أحد القسس وقالت لى : ميشيل — وربات البيوت اللائى أخدمهن في زينتهن ينعتننى بهذا الاسم — هل لك أن تبحث لى يا ميشيل عن عريس من أصحاب الأقلام؟!

ولحسن حظها كنت أعرف أحدهم واسمه بورفيرى إيميليانيتش كان يقبع دائماً فى إحدى الخمارات ويخيف روادها بنشر أسمائهم فى الصحف. وكان كلما أتاه صاحب الخمارة ليقبض ثمن الفودكا، همس بورفيرى فى أذنه قائلا: أتطلب منى دراهم؟ ألا تعرف مَن أكون؟. لا تنس أننى قادر على أن أعلن عنك فى الصحف أنك من كبار المجرمين!. ولما كان بورفيرى هذا شاباً شبه عارٍ، رثّ الثياب، سهل علىَّ إغراؤه بمال ابنة القسيس. أطلعته على رسمها، واقتدته إليها بعد أن استعرت له ثياباً جديدة. غير أن الحظ لم يواته، فلما رأته الآنسة أشاحت بوجهها عنه قائلة: إننى لا أرى فى محيّاه أمارات الحزن والألم!.. والواقع أن ابنة القسيس نفسها لا تعرف مَن مِن الرجال تريد.

وعاد الرجل صاحب الصوت الذى فيه بُحة، وعلّق على حديث ميخايلو قائلاً: إنك تفترى على الصحافة أيها الخسيس. فأجاب الحجام: أتنعتنى بالخسيس؟.. إنه لمن حسن طالعك أننى مقبل على تناول القربان وإلا لأسمعتك كلاماً جارحاً.. ألعلك من طبقة الكتاب أيضاً؟.. قال: كلا، لكننى أطلب منك ألا تتحدث عما لا تدرك كنهه. لقد كان الكتّاب فى روسيا

كثيرين ، وقدموا لبلادهم خدمات جليلة ، بل إنهم ثقفوا العالم قاطبة ؛ ولذا يجب علينا أن نذكرهم مفتخرين بهم لا شاتمين ؛ وإننى أعنى بهؤلاء الكتاب لا الملمانيين فحسب بل والروحيين أيضاً . فأجاب الحجام : إن الكتّاب الروحيين لا يعنون بأمور كالتى تدافع عنها .

قال : حقـاً إنك لا تفقـه ما تتفوه به ، إن ديمترى روستوفسكى ، وإينوكينتى خرسونسكى ، وفيلاريت موسكوسكى ، وغيرهم من رؤساء الكنيسة ساهموا مساهمة فعالة فى نشر العلوم والمعارف .

فنظر ميخايلو بطرف عينه إلى خصمه ثانية ثم حوّل وجهه نحوه بسرعة وصاح فيه : يبدو لى أنك من أولئك ياسيدى ! من ذوى الأفكار ! . . وليس من العبث أنك قد أطلت شعر رأسك ! . . أجل إننا أدرى بهذه الأمور ، وسنريك الآن من تكون ! ؟

ثم نهض الحجّام وقال لزبونه : دع يا سيدى الأقداح على جسمك ، وسأعود إليك على وجه السرعة . . وخرج ميخايلو يجر وراءه سرواله المبتل ، وذهب توًّا إلى الباب الخارجى ،

حيث كان يجلس رجل قزم يبيع الصابون ، خاطبه قائلاً :
سيخرج من الحمام الآن رجل طويل الشعر ، فعليك أن تراقبه،
إنه يحرض المستحمين ، أفهمت ؟ . . إنه من ذوى الأفكار . .
أسرع فى طلب نازار زاخاريتش ! . . فأجابه القزم : أخبر
الصبية بالأمر . فالتفت ميخايلو إلى الصبية الواقفين عند ألبسة
المستحمين ، وقال لهم : سيخرج من الحمّام الآن رجل طويل
الشعر ، إنه يبث فى الناس روح التمرد ! . . تتبعوا أثره وأسرعوا
فى إخبار صاحبة الحمام لكى تبعث فى طلب نازار زاخاريتش
ليحقق معه ! . . إنه رجل خطر ، يتلفظ بعبارات مخيفة . . إنه
من ذوى الأفكار ! . .

فما إن سمع الصبية هذا الكلام حتى ارتسمت على محيّاهم
علامات الارتباك ، وقالوا للحجّام : أين هو هذا الرجل ذو الشعر
الطويل ؟ . إننا لم نر بين الزبائن رجلاً ينطبق عليه وصفك
هذا ، فالذين نزعوا ألبستهم هنا هم ستة أشخاص : تتريان ،
وتاجران ، ووجيه ، وشمّاس .. فلعلك تقصد صاحب الشعر
الطويل أبانا الشماس ؟ فأجاب ميخايلو : إننى أعنى ما أقوله ،
فلا تحاولوا تضليلى أيها الشياطين . . ثم نظر إلى ألبسة الشماس ،

ولمس رداءه الكهنوتي ، فساورته الشكوك وسأل الصبية : بمَ تميزون صاحب هذه الألبسة ؟ فأجابوه : إنه نحيف ، أشقر الشعر ، له لحية كثة ، ويسعل كثيراً . . فامتقع لون الحجّام لدى سماعه هذا الجواب ، وراح يوبخ نفسه قائلاً : إنني هاجمت شخصية قدسية لها مكانتها في الكنيسة فيا للخطيئة . . وما عسى أن أعمل الآن وأنا مقدم على تناول القربان . . المغفرة يا إلهي لقد أخطأت وعليّ أن أذهب إلى أبينـــا الشماس أسأله السماح .

تألم ميخايلو لما حدث له تألماً شديداً ، وعاد أدراجه إلى داخل الحمام بخطوات غير متوازنة ، فشاهد الشماس وقد أفَجّ رجليه إلى جانب الصنبور وهو يصب الماء الساخن بالطاس على جسمه ، فاقترب منه وخاطبه بصوت باكٍ : « أسألك السماح أيها الشمّاس ؟ من أجل المسيح سامح هذا الشقي ! »

فالتفت إليه الشماس مستغرباً وقال : علام أسامحك ؟ . .

فزفر الحجّام زفرة طويلة ، وجثا عند قدمي الشماس وقال :

— لقد ظننت . . أن في رأسك أفكاراً ! . .

اقرأ

تدخل فى عامها الخامس

١٩٤٣ — ١٩٤٧

صدر منها ٥٠ كتاباً فى
مختلف ألوان الأدب والعلم
ونالت استحسان القراء وتقديرهم
فى جميع البلاد العربيـــة

هدفها بثّ رسالة الفكر فى الجمهور
مع العمل على توجيه الشعوب العربية
إلى طريق الخير والحق والجمـــال

اقرأ

المؤلفات التى ظهرت فى هذه السلسلة

١	أحلام شهر زاد	للدكتور طه حسين بك
٢	شاعر الغزل	للأستاذ عباس محمود العقاد
٣	مذبح المريخ	للأستاذ فؤاد صروف
٤	عود على بدء	للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى
٥	دستويفسكى	للأستاذ حسن محمود
٦	شاعر ملك	للأستاذ على الجارم بك
٧	الشاعر الرجيم	للأستاذ عبد الرحمن صدقى
٨	مذكرات دجاجة	للدكتور إسحق موسى الحسينى
٩	المذاهب السياسية المعاصرة	للأستاذ على أدهم
١٠	شفاء النفس	الدكتور يوسف مراد
١١	الكون العجيب	للأستاذ قدرى حافظ طوقان
١٢	سنوحى	للدكتور محمد عوض محمد
١٣	جميل بثينة	للأستاذ عباس محمود العقاد
١٤	من يوميات فتاة عصرية	للأستاذ حسين شوقى

إلى رجال الغد وأولياء أمورهم

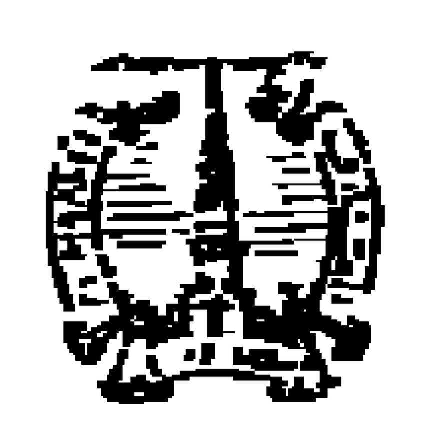
تظهر قريبا

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النموّ
المتعة والثقافة وسمو النفس .

تصدرها
دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك



مطبوعات حديثة

الحـــرية (٢٠ قرشاً)

تأليف جون ستيوارت ميل وتعريب طه السباعى باشا

كتاب وضعه مؤلفه دفاعاً عن الحرية الشخصية ، وتأييداً لمبدأ الاستقلال الفردى . ويعد دعوة حارة تهيب بالأفراد إلى بذل نصيبهم من المجهود فى الحياة بالقلب وباللسان وباليد . وقد عنى سعادة المعرب بالترجمة إلى حد الإتقان والـكمال .

تاريخ أوروبا فى العصر الحديث (جنيه واحد)

تأليف هربرت فيشر

وتعريب الأستاذين أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع .

مرجع من أهم المراجع فى تاريخ أوربا الحديث ألفه علم من أعلام المؤرخين فى العصر الحديث كان أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة أكسفورد ووزيراً لمعارف بريطانيا . وقد جاءت هذه الترجمة دقيقة الأداء متينة الأسلوب فى ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير.

المسند للإمام أحمد بن حنبل (ثمن الجزء ٨٠ قرشاً)

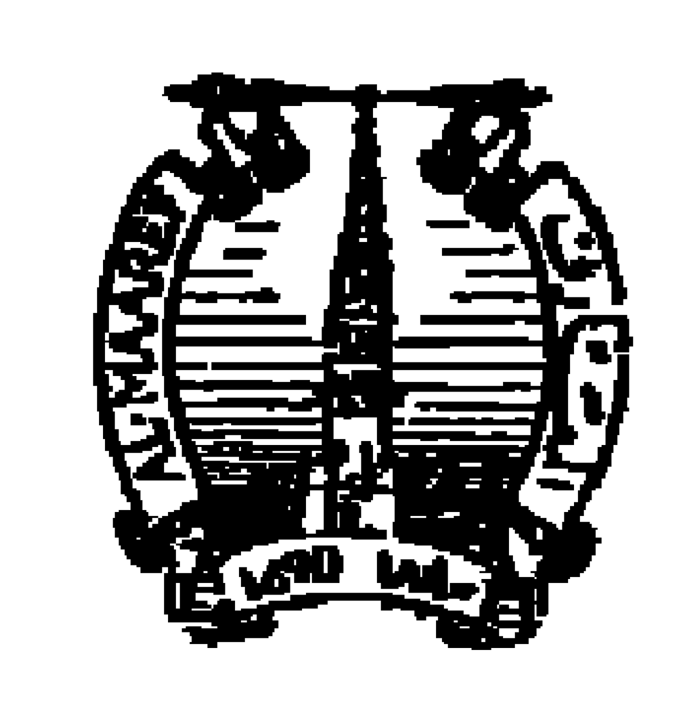
شرح الأستاذ أحمد محمد شاكر

الكتاب الذى جعله مؤلفه إماماً للناس يرجعون إليه فى تعرف السنة وهو كالأصل لكتب الحديث ، ومؤلفه إمام المحدثين وحجتهم . وقد عنى الشارح ببيان درجة كل حديث من الصحة والضعف ، مع التعليل الدقيق الوافى على أدق قواعد علماء الحديث وأصحها . وألحق به فهارس وافية على نحو مبتكر. ظهر الجزء الأول فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٩٤٦ فى طبعة فاخرة فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير .

صور من التاريخ العربى (٢٥ قرشاً)

تأليف الأستاذ نقولا زيادة

فى التاريخ العربى زوايا مهجورة لو أنصفها الناس لأصابوا منها خيراً كثيراً وهذا الكتاب يقع فى ٣١٢ صفحة هو ثمرة جهد واسع بذله مؤلفه فى سبيل الكشف عن تلك الزوايا المهجورة من تاريخنا العربى .

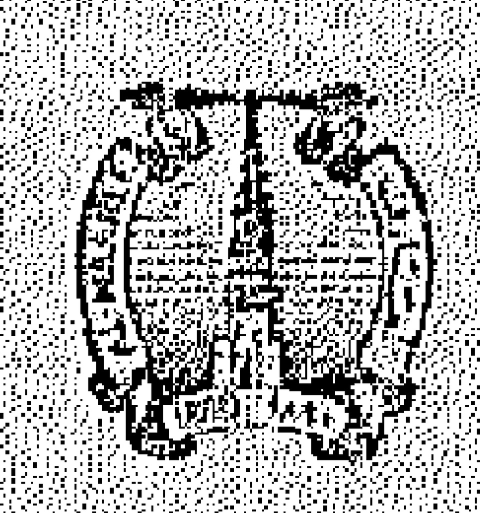


دار المعارف

للطباعة والنشر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

المحل الرئيسى بالقاهرة	:	٧٠ شارع الفجالة
فرع الإسكندرية	:	٢ ميدان محمد على
مكتب السودان	:	شارع السردار بالخرطوم
مكتب فلسطين وشرق الأردن	:	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب لبنان وسوريا	:	شارع المعرض ببيروت



روضة الطفل

مجموعة من القصص المشوقة المفيدة
مزينة بالصور المطبوعة بالألوان

أرنبــو والكنز

كتكت المدهش

عيد ميــلاد فلة

فرفر والجــرس

• ثمن القصة ٧ قروش •

تصــدرها

دار المعارف بمصر

بمعاونة حضرات
أمينة السعيد ويوسف مراد وسيد قطب

